الجامعة الاميركية في بيروت

آراء الجاحظ في مناقب الامم ومثالبها :

عرض وتحليل .

جمال فؤاد العطّار

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية

في

الجامعة الاميركية في بيروت

لنيل درجة الماجستير في الادب العربي .

كانون الثاني ١٩٨٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

The Views of al-Jāḥiẓ concerning the Nations As Reflected in His Works: An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ād al-ʿAṭṭār

A Thesis
Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of Arts in
the Department of Arabic and Near Eastern Languages,
at the American University of Beirut
Beirut, Lebanon

January, 1989

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title :

The Views of al-Jāḥiẓ concerning the Nations As Reflected in his works: An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ad al-ʿAṭṭār

Approved:

Sāmī Makārim ______ Advisor

ʿAfīf Dimashqiyya ______ Member of Committee

Ṭarīf Bazzī ______ Member of Committee

Ṭarīf Khālidī ______ Member of Committee

Date of Thesis Presentation ______ January 6th, 1989.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, Jamal Fu'ad al-ʿAṭṭār

[ ] authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

OR

[✓] do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Jamal F. ʿAṭṭār
Signature

January 25th, 1989.
Date

فهرس المحتويـــــات

المقدمـــة

ان الفترة الزمنية الواسعة التي عاشها الجاحظ من عمر الخلافة العباسيـــة لهي جديرة حقا بالدراسة. فالجاحظ الذى عاش من (١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)[1] ، عاصر احد عشر خليفة هم : المهدى والهادى والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين والمعتز . ولم تكن علاقة الجاحظ سلبية برجال البلاط العباسي بل كانت علاقته وثيقة بحيث تهيأ للجاحظ كما يقول طـــــه الحاجرى ان يكون " ضرورة من ضرورات الدولة ، يساهم بأدبه وعلمه وقدرته الكلامية في تناول بعض المسائل التي كانت تعنيها وتشغل بالها ."[2] ولعل الجاحظ كان اشبه بمستشار الشـــؤون الداخلية خلال تلك الفترة الواسعة من عمر الخلافة. وان رسائله الهادفة الى توجيــه رجال الدولة كالتي ألّفها في موضوع الامامة[3] حين وقعت الفتنة بين الامين والمأمون ،

---

(١) انظـر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Djāhiẓ", by Charles Pellat.

وانظر ايضا :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Djāhiz, (University of California Press, 1969), p. 3.

(٢) طه الحاجرى ، الجاحظ : حياته وآثاره (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠) ، ص ٣٦٠ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في استحقاق الامامة ،" و " رسالة الجوابات في الامامـــة " في : رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ع ج (القاهرة : مكتبـــة الخانجي ، ١٩٦٤ - ١٩٧٩) ، ج ع (١٩٧٩) ، ص ٢٠٧ و ٢٨٥ . وانظر " رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، " " تحقيق شارل بلا ، مجلة المشرق (بيروت) ، السنة ٥٢ ، ج ع ٥ ، (١٩٥٨) . وانظر مقالة المستشرق غابرييل فيراند حول فتنة الامين والمأمون ولدى هـارون الرشيد التي حصلت في عام ١٩٥ هـ / ٨١٠م في :

Encyclopaedia of Islam, new ed. s.v. "Al-Amīn," by Gab. Ferrand.

او موضوع تأليف قلوب جند الخلافة (١) او التي كتبها في توجيه القاضي ابن ابي دؤاد (٢) ، تدل على ان رأى الحاجرى السابق ان الجاحظ كان ضرورة من ضرورات الدولة العباسية ليس بعيدا عن الحقيقة كثيرا .

ومن خلال الفترة الطويلة التي عاشها الجاحظ ، استطاع ان يطلع علينا بآراء لا تعكس نظرة العرب في انفسها من حيث هي امة معتبرة فحسب وانما في عدد لا بأس به من الامم المعتبرة كالفرس والروم والهند والصين والترك واليونان فضلا عن أمم السودان وأمة الصقالبة (٣) . والجدير بالذكر ان لفظي الجنس والامة في ادب الجاحظ هما لفظان مترادفان لحقيقة واحدة ، وعادة ما يأتي هذا المعنى الواحد بهذين اللفظين او بالفاظ اخرى مثل العالمين ـ الناس ـ العالم وسكانه ـ الدنيا واهلها ـ الجيل ـ الصنف ، وينطبق ذلك على سائر كتابات الجاحظ التي وصلتنا .

---

(١) اى رسالته " في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " التي كتبها الى الفتح بن خاقان حين دخل الترك رافدا مساعدا الى جسم الدولة العباسية ، مع ما رافق ذلك من مشاكل . انظر رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥ - ٨٦ .

(٢) اى رسالة " المعاش والمعاد " التي كتبها لابن ابي دؤاد ، وزير المتوكل المتوفى ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٨٥٤ م . انظر المصدر نفسه .

(٣) تجدر الاشارة الى ان الجاحظ لا يعد الصقالبة واصناف السودان من الامم المعتبرة ، باستثناء امة الهند .

تقتصر هذه الرسالة على عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم ومثالبها .
والامم المعتبرة لديه هي العرب والفرس والهند والروم والصين والترك واليونان (١)
كما تتضمن الرسالة ايضا عرضا لآرائه في الصقالبة واصناف السودان كالزنج والسند
والاحباش والنوبة والقبط . ونبدأ الآن بعرض آراء الجاحظ في الامم المعتبرة مفتتحين
برأيه في العرب ومحاولين التعرف على مقاييسه (٢) التي ترقى بالامم الى منزلة
الامم المعتبرة ، او التي تحول بينها وبين هذه الدرجة .

---

(١) ان من يستقرئ مفهوم الجاحظ للامم المعتبرة يلحظ عدم ثبات هذا التصنيف على وجه واحد . فهي تارة اربع : العرب والفرس والهند والروم . راجع كتاب البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت : دار الفكر ، د . ت) ١ : ١٣٧ و٣٤٨ وكتابه " في الاخبار وكيف تصح " تحقيق شارل بلا ، المجلة الآسيوية Journal Asiatique ، ج ٢٥٥ ، ١٩٦٧ . و " رسالة في الحكمين . . . " ص ٤٧٣ حيث يقول : " هؤلاء رؤساء الامم " . وطورا تتسع الامم المعتبرة ليصل عددها الى خمس فتشمل الصين والترك واليونان مع الغائه للهند والروم ضمن مجموعة الامم المعتبرة الاربع . كما في " رسالة مناقب الترك " ، في رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ (١٩٦٤) : ٦٧ ، ويلاحظ ان اليونان في أدب الجاحظ هم غير الروم . انظر " رسالة الرد على النصارى " المصدر السابق ، ج ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ وكتاب البيان ١ : ٨٨ .

(٢) بعد عرض الآراء ، الذي يشكل معظم الرسالة ، نأتي الى التعرف على هذه المقاييس في الفصل الختامي من الرسالة .

البـــاب الاول

==========

عـرض لآراء الجاحـظ فـي مناقـب الامم المعتبرة ومثالبهـا

==================================

الفصـــل الاول

==========

العــــرب

=======

مناقب العرب

تناول الجاحظ في نظرته في العرب مناقبها ومثالبها . اما المناقب التـــــي جعلتها في رأيه تفضل الامم جمعاء ، فهي ان النبي محمّدا افضل بني هاشم ، وبنـــي هاشم افضل قريش ، وقريشا افضل قبائل العرب . وسنبدأ بحثنا في العرب بذكـــر المحاسن التي تمتاز بها عن غيرها من الامم ، ثم نذكر المحاسن التي تمتاز بها قريش على العرب ، وبعد ذلك نذكر المحاسن التي يمتاز بها بنو هاشم على قريش ، ثم نذكر الخصال التي فضل بها محمّد بني هاشم .

وقد ذكر الجاحظ هذه المميزات متفرقة في مختلف آثاره(1) ، فكان لا بد مـــن اظهار هذه المميزات ومحاولة تنظيمها مجتمعة بالرجوع الى جميع هذه الاثار .

---

(1) اما آراؤه في العرب فقد وردت في البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، تحقيـــق عبد السلام هارون ، ٧ اجزاء ، الطبعة ٣ ، (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٦٩) ، والبخلاء ، تحقيق طه الحاجرى ، (القاهرة ، دار الكتاب المصرى ، ١٩٤٨) ، ورسائل الجاحظ ، وكتاب "الاخبار وكيف تصح" . واما آراؤه في قريش ، فقد وردت خاصة في "كتاب في الاوطان والبلدان" و"كتاب في المعلمين" و"رسالة في مدح التجارة" ضمن رسائل الجاحظ كما وردت في البيان والتبيين . واما آراؤه في بني هاشم فقد وردت في رسائل الجاحظ وكتاب فضل بني هاشم على عبد شمـــس في رسائل الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبي ، (القاهرة : المطبعة الرحمانيـــة ، ١٩٣١) وفي "رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم ، " مجلة لغة العرب (بغداد) السنة ٩ ج : ٦ ، ٧ (١٩٣١) ، وكتاب البخلاء . واما آراؤه في النبي محمــــد فقد وردت في المصادر المذكورة اعلاه وخاصة في البيان والتبيين ورسائل الجاحظ . وحين نذكر لاحقا رسائل الجاحظ فالمقصود بها تلك التي حققها عبد السلام هارون ، واما حين نستخدم الرسائل التي حققها السندوبي فسوف نميزها عن الاولى بذكـــر السندوبي بين قوسين .

١ ـ ما تفضل به العرب سائر الامم

على رأس الخيرات المقسومة من الله (١) ، المفاضة على الخلق ،تقف فضيلة البيان العربي او حظ العربية التي فضلت العرب بها الامم جمعاء ، وذلك يعود لسببين : الاول ان البيان العربي اهّل العرب لاستقبال التنزيل القرآني دون سائر الامم ، وقد قال الجاحظ في ذلك :

"... ولفضل الفصاحة وحسن البيان ، بعث الله تعالى افضل انبيائه واكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربيا ، وانزل عليه قرآنا عربيا كما قال تعالى (بلسان عربي مبين)"(٢)

اما السبب الثاني الذى جعل العرب تفضل الامم ، فهو ان فضيلة البيان العربي لم تؤهل العرب لاستقبال التنزيل فحسب وانما تم بها افتتاح الخطاب الالهي لجميع الامم بعدما تم للعرب ما دعاه الجاحظ " حظ العربية "(٣) قال :

"... انما خاطب (٤) العرب ، وهم الحجة على جميع اهل اللغات ، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الامم بعد الترجمة على السنة هؤلاء العرب ، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الامم "(٥)

فللعرب ان تفخر على سائر الامم اذ اصبحت كما يقول الجاحظ بذلك الحظ او الخطاب ، الحجة على جميع اهل اللغات ، اى حجة الله على خلقه حين فتح امامها فرصة قيادة الامم وهدايتها الى المعاني المبثوثة في ذلك الخطاب لانه بلغتها ونبيّها خاطب الله العرب والعجم .

---

(١) اللفظ للجاحظ :انظر " رسالة كتمان السر وحفظ اللسان " في رسائل الجاحظ ١ : ١٧١ و" رسالة الوكلاء " ،المصدر نفسه ٤ : ١٠٣ . وفي الاخيرة يقول الجاحظ : " ابى الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباده قسمة عدل ."

(٢) الشعراء : ١٩٥ . انظر الجاحظ في " رسالة تفضيل النطق على الصمت " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٧ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ١٢ .

(٤) يعود الضمير المستتر في " خاطب " الى الله .

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢١٣ - ٢١٤ .

بعد فضيلة البيان العربي" الذى ليس كمثله بيان"(١) او اللغة التي ليس كمثلها في السعة لغة (٢) ، رأى الجاحظ ان العرب فاقت الامم لتميزها بطائفة من الخصائص الاجتماعية هي من ذلك البيان غايته ومادته. على رأس تلك الفضائل ما سماه الجاحظ " احكام العرب شأن المناقب والمثالب" (٣) ، كأنما الجاحظ يومئ بذلك الى ان العرب ما كان ليتم لها حظ التنزيل لولا تمتعها بطائفة من الخصائص يسوقها ليبرهن على كونها تمثّل البذرة الصالحة المرتقبة للمجتمع الاسلامي . قال مشيدا بالدور الاصلاحي الاجتماعي للعرب ولغتها :

"... وليس في الارض قوم اعنى بذم جليل القبيح ودقيقه وبمدح دقيق الحسن وجليله من العرب ، حتى لو جهد افطن البرية واعقل الخليقة ان يذكر معنى لم يذكروه ، لما اصابه ... ولهم حظ العربية مع الحفظ لانسابهم ومحاسن اسلافهم ومساوئ اكفائهم ، للتعاير بالقبيح ، والتفاخر بالحسن ، ليجعلوا ذلك عونا لهم على اكتساب الجميع واصطناع المعروف ، ومزجرة لهم عن اتيان القبيح وفعل العار ، وليؤدبوا اولادهم بما ادبهم به آباؤهم..."(٤)

وقبل تعداد بقية الخصال التي فضلت بها العرب العجم ، نشير الى ان هذه الخصلة العربية المتمثلة في ولعها بالمناقب وذمها المثالب- عدّها الجاحظ من جملة الخيرات المقسومة من عندالله للخلق عامة والعرب خاصة ، ولاسيما الذين يمثلون في نظر الجاحظ ، وفي تلك المرحلة من التاريخ (اى مرحلة ما قبل الاسلام) ، البقية الثابتة على دين ابراهيم (٥)، اى انها غير موجهة

---

(١) الجاحظ ،" كتاب الاخبار وكيف تصح" ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٩-٧٠ .
(٤) الجاحظ ،" كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٢ .
(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٢٣ .

اصلا للبقية غير الثابتة على دين ابراهيم والتي خصها الجاحظ بنقد دقيق . ثم ان الجاحظ ما انفك يلحظ خضوع الامم لتسيير الهي كلما دار الحديث حول فضائل الامم فهناك تدخل الهي واضح في تلوين الامم بجملة الخيرات المقسومات اصلا من عنده والمفاضة على جميع خلقه دون ان يكون ذلك التدخل حكرا للعرب لانه يشمل الامم جميعا . قال :

"... ثم اعلم بعد هذا ان كل امة وقرن وكل جيل وبني اب، وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البيان ، او فاقوهم في الاداب ،وفي تأسيس الملك ، او في النصر بالحرب،فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ،وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ،وتصلح لتلك المعاني..." (١)

ويرى الجاحظ ان هذه الخصائص او الخيرات التي تحققت للعرب انما تمت بتسخير الهي يترافق مع حرية الارادة البشرية. قال :

"... وكل صنف من الناس مزيّن عندهم ما هم فيه ،ومسهّل ذلك عليهم... فسخّرهم على غير اكراه ،ورغبهم من غير دعاء ... والاسماء مبذولة ، والصناعات مباحة ،والمتاجر مطلقة... ولكنها مطلقة في الظاهر ،مقسّمة في الباطن...." (٢)

ولقد جمع الجاحظ قدرا كبيرا من هذه الخصائص بقوله الذى يفيد التوافق المذكور والذى جعل نفوس العرب اكبر وهممها ارفع من سائر الامم.

"... والعرب لم يكونوا تجارا ولا صنّاعا ولا اطباء ولا حسّابا ... ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية . ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم . ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغنى الذى يورث البُلدة ، ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم انفسهم. وكانوا سكان فياف ،وتربية العراء ،

---

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك ،" رسائل الجاحظ ،١ : ٧٣ .

(٢) الجاحظ ،"رسالة في حجج النبوة" ،رسائل الجاحظ ،٣ : ٢٤٢ - ٢٤٤ .

لا يعرفون الغمق ولا اللثق ولا العفن ولا التخم. اذهان حداد ونفوس مفكرة ، فحين حملوا حدّهم ، ووجّهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الاثر(١)، وحفظ النسب(٢)، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرّف الانواء (٣) والبصر بالخيل (٤) والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل امنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهممهم ارفع من جميع الامم وافخر ولأيامهم احفظ واذكر."(٥)

---

(١) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله" وقيافة الاثر مع قيافة البشر" في كتابه "الاخبار وكيف تصح" ص ٩١ . وقال الجاحظ ان القيافة لدى العرب شأن فطرى لا يكتسب" نجدها في بني مدلج ثم في خاص من خثعم وكذلك خزاعة ، وهي في قريش اقل وهي في بني اسد اقل ." انظر الجاحظ ، كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٥) الفقرة ١٧٦ الصفحة ٩٢ .

(٢) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله" وللعرب جودة الحفظ لانسابهم ومآثرهم الذى لا يقدر احد على مثله وان دوّنه وخلده في كتبه ."انظر :" كتاب الاخبار" ، ص ٩٣ . ورأى الجاحظ ان خصلة الحفظ من الخصال التي فضلت العرب بها العجم التي لا تحوط الانساب ولا تتحفظ المقامات ، انظر الجاحظ ، البخلاء" ، ص ١٦١ ، و" رسالة مناقب الترك ،" رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١ حيث يذكر ان العرب امة امية والعجم امة كتابية ، والمحاسن والاضداد ، تحقيق فوزى عطوى ، (بيروت ، دار صعب ، ١٩٦٩) ص ٣ .

(٣) او المعرفة بعوامل الطبيعة التي يرجعها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ج ٦ : ٢٩ - ٣١ الى حاجة العرب الى تلك المعرفة ودقة اذهانها وجودة حفظها وطول وقوع بصرها . انظر ايضا" كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٣ .

(٤) قال الجاحظ في ذلك ايضا : " وليس في الناس اشد عجبا بالخيل من العرب ولا اكثر لها ارتباطا ولا اهجا لمن لايتخذها ." انظر " كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص ١٠٣ .

(٥) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٩ - ٧٠ .

وفي موضع آخر حدد الجاحظ اسماء الامم التي تفوّقت العرب عليها ، كما ذكر خصائص اخرى فاقت العرب بها هذه الامم قال :

" . . . وللعرب من صدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وصحة الرأى ما لا يعرف لغيرهم . ولهم العزم الذى لا يشبهه عزم ، والصبر الذى لا يشبهه صبر (١) ، والجود (٢) والانفة والحمّية التي لا يدانيهم احد فيها ، ولا يتعلق بها رومي ولا هندى ولا فارسي ، لان هذه الامم كلها باختلاف العرب شيما . . . . " (٣)

والعرب ان شاركت بعض الامم في دائرة الخيرات (٤) المقسومة من الله ، فمشاركتها تفيد في نظر الجاحظ التفوق في درجة انتشارها وتمامها وكثرتها لا المساواة (٥) ، التي افرد لها بحثا مستقلا ، كما تغلّب على المساواة . فالعرب فاقت سائر الامم بخصائص هي من جنس خيرات الامم كي يكون التفوق في محله ، فكأن الحظ الاوفر من الخيرات المفاضة

---

(١) عبّر الجاحظ عن صبر العرب ، حين وصفها بقلة الطعام وشظف العيش والجهد " الذى لم يسمع به في امة من الامم " راجع : الجاحظ ، كتاب البخلاء ص ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ٢٠١ .

(٢) راجع المصدر السابق ، ص ٢٢٣ . واذا كان الكرم والضيافة خصلة عربية فان البخل قدر اهل مرو والاهواز من بني فارس وقدر للروم ايضا . انظر : البخلاء ص ١٣ ، ١٤٧ ، و١٧٨ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٢ .

(٤) كاستواء الامم المعتبرة في التحلي بفضيلة الحنين الى الوطن . انظر الجاحظ في " رسالة في الحنين الى الاوطان ، " رسائل الجاحظ ، ٢ : ٤٠٧ ، واشتراك الزنج مع العرب في التحلي بفضيلة الكرم . انظر الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان ، " رسائل الجاحظ ، واشتراك الترك والعرب في معاني الفروسية والنجدة كما في " رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٥ - ٨٦ .

(٥) في الفصل الاخير من هذه الرسالة اشارة الى رأى الجاحظ في بعض المواطن التي تساوت فيها العرب والعجم .

على الخلق قد قسم للعرب (١) دون حرمان سائر الامم منها وخاصة المعتبرة التي لم يخف الجاحظ اعجابه بها كما سنرى في حينه من الرسالة.

ويواصل الجاحظ تعميماته لاظهار فضل العرب على غيرها فينسب الى صبيان العرب ونسائها وعوامها تفوقا على نظرائها في سائر الامم.قال في ذلك :

"... وليس في الارض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم.. واما العوام من اهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وادبنا واخلاقنا فالطبقة التي عقولها فوق تلك الامم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على ان الخاصة تتفاضل في طبقات ايضا ... واذا كان نساء العرب في الجملة اعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدّمة فيهم ؟..."(٢)

ويوضح الجاحظ في موضع آخر ان للحظّ دورات بين الامم ،فهذه الخصال التي لصبيان العرب ونسائها ورجالها قد سبقهم اليها من اجرى عليه الله الملك والنبوّة من قبل. والعرب بدورها تفوق الامم نظرا لانها اصبحت تجمع الآن فضلي النبوّة والملك ، قال :

"... فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الملك والنبوّة ،كانوا اشرف من العرب،وان الله لما حوّل ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم."(٣)

ولا يعني ذلك ان الجاحظ يرى ان جميع افراد الجنس العربي يتمتعون بالخصائص المأثورة عن المجموع. قال:" وليس كل اعرابي شاعرا وقائفا ..."(٤). جل ما في الامر ان خصال العرب المذكورة" اعم واتم ،وهي فيهم اظهر واكثر."(٥)

---

(١) وذلك في مرحلة محددة من اطوار الامة ،هي مرحلة تمتعها بالملك والنبوّة. انها المرحلة التي سماها تلميذ الجاحظ ،التوحيدي ،في كتابه الامتاع "ايام النشأة". انها مرحلة السيادة لدى الامة التي ينبغي تحرى حسناتها ومناقبها فيها دون غيرها من المراحل. انظر: التوحيدي ،الامتاع والمؤانسة ،تحقيق احمد امين واحمد الزين (بيروت : دار مكتبة الحياة) ١ : ٧٣.

(٢) انظر: الجاحظ في" كتاب الاخبار وكيف تصح " المجلة الآسيوية ،ص ٩٣ ،وكتاب البيان والتبيين ١ : ١٣٧ ،وكتاب الحيوان ١ : ٢٨٦ .

(٣) الجاحظ " رسالة في النابتة ،رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢١و" رسالة في حجج النبوة ،" المصدر نفسه ، ٣ : ٢٤٥ حيث يذكر ان العرب للملك مسخرون.

(٤) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك ،" رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣.

(٥) المصدر نفسه.

باختصار ،ان العرب فاقت الامم بسمة البيان وخصائص اجتماعية وخلقيـــة هيأتها لاستقبال التنزيل . فزيادة الى كونها صاحبة " التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب بالمنثـور المرسل بعد الموزون المعدّل ،بلسان امضى من السنان وارهف من السيف الحسام "(١) مع ما يعكسه ذلك من تهيئة محكمة لارساء المجتمع الاسلامي، فهي امـــة اعتمدت " على حفظ الاميين الذين لا يتكلون على الكتب المدوّنة والخطوط المطرّسة "(٢) مع ما يعكسه هذا القول من استعداد لحفظ التنزيل في الصدور . وقد اشار الجاحظ الى هذه النقلة التي تمت للعرب بقوله :

" . . . ان هذه العرب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جلـد الفرس.فلولا ان الله رقّ عليهم ، فجعلهم في حاشية ،لطمست هـــذه العجمان آثارهم. . . . "(٣)

وفي هذا تأكيد لمقولته التي ترى ان يد الله تلازم جميع الخيرات المفاضة علـى خلقه ،" كحظ العربية" المقسوم للعرب ،ذى الاوجه الثلاثة : البياني والخلقي والاعلامي .

٢- ما تفضل به قريش العرب

تميزت قريش في نظر الجاحظ على غيرها من العرب بخصال معينة وذلك " تعبئة لها لكل جسيم وتربية لها لكل عظيم . "(٤)

من هذه الخصال اعتداد قريش باصلها وحسبها،فاهلها" لقاح ،لم تؤدّ اتــاوة قط ،ولم تطئها الملوك بالتمليك "(٥) كما لم يصبها في الجاهلية سباء . قال :

" . . . ومما بانت به قريش من سائر العرب ،انّا لم نر قرشيا انتسب الى قبيلة من قبائل العرب،وقد رأينا في قبائل العرب الاشراف رجالا الـى الساعة ينتسبون في قريش. . . ومما بانت به قريش انها لم تلد في الجاهلية

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك "، رسائل الجاحظ ،٣: ١٨٠ - ١٨١ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ،٢ : ٧١-٧٢.
(٤) الجاحظ ،" كتاب في المعلمين " ، رسائل الجاحظ ،٣ : ٤٦ .
(٥) الجاحظ ،"كتاب في الاوطان والبلدان "، رسائل الجاحظ ،٤ : ١٢٠ .

ولدا قط لغيرها ... وما بانت به قريش من سائر العرب ان اللـــه جاء بالاسلام وليس في ايدى جميع العرب سبية من جميع نساء قريش ، ولا وجدوا في جميع ايدى العرب ولدا من امرأة من قريش ."(١)

ومن هذه الخصال ايضا اتصاف قريش بالحماسة الدينية ،واستئثارها بخدمـــة البيت العتيق ، مما خوّلها سيادة القبائل وذلك لاجتماع الاخلاق والالفاظ والعقول والاحلام فيها ، الى جانب عدم مشاركتها العرب في شيء من جفائها او غلظ شهواتها . قال :

"... وما بانت به قريش من سائر العرب انها لم تكن تزوّج احـــدا من اشراف العرب الاّ على ان يتحمس ، وكانوا يزوجون من غير ان يشترط عليهم : وهي عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ، والحارث بن كعـــب ، وكانوا ديانيين ، ولذلك تركوا الغزو لما فيه من الغصب والغشم واستحلال الاموال والفروج . ومن العجب انهم مع تركهم الغزو ، كانوا اعـــز واشل ... ومن العجب ان كسبهم لما قل من قبل تركهم الغزو ،ومالوا الى الايلاف والجهاد ،لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير ،والبخل خلقة في الطباع ،فاعطوا الشعراء كما يعطي الملوك ،وقروا الاضياف ،ووصلوا الارحام ،وقاموا بنوائب زوّار البيت ... ومن خصالهم انهم لم يشاركـــوا العرب والاعراب في شيء من جفائهم وغلظ شهواتهم ،وكانوا لا يأكلـــون الضباب ولا شيئا من الحشرات ،الا ترى ان النبي - صلى الله عليه وسلم - اتوا خوانه بضبّ فقال :" ليس من طعام قومي"... وكانت العرب قاطبة ترد مكة في ايام الموسم ، وترد اسواق عكاظ وذا المجاز ،وتقيم هنـــاك الايام الطوال ،فتَعرُفُ قريش ،لاجتماع الاخلاق لهم والشمائل والالفاظ ، والعقول والاحلام ، وهي وادعة وذلك قائم لها ، راهن عندها في كل عـــام ، تتملك عليهم فيقتسمونهم،فتكون غطفان للسيرة ،وبنو عامر لكذا وتميم لكـــذا ، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها ... واهل مكة حمس ولقاح لا يؤدون اتاوة ، ولهم السقاية ، ودار الندوة ، والرفادة والسدانة ."(٢)

---

(١) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٤ - ١١٥ . والقبائل المذكورة هي التـــي حمستها قريش (عدا ثقيف وخزاعة) انظر المصدر نفسه ص ١٢٧ . والملاحظ ان الجاحظ في النص التالي استدرك مقولته الاخيرة حين قال : ان شرط التحمس الديني لرجال القبائل العربية بامكانه ان يسمح لهم الانتساب من قبيلة قريـــش . وهذا الاستثناء فاته في النص الاول المذكور.

(٢) الجاحظ ، المصدر نفسه ،٤ : ١١٥-١١٩ .

وما بانت به قريش سائر العرب اتصافها بالحظ الاوفر من الفصاحة قال :

"... قال النبي صلى الله عليه وسلم :" انا افصح العرب بيد اني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر." ولو لم يكن مما عددنا من هؤلاء الاحياء الا قريش وحدها ، لكان فيها مستغنى عن غيرها . وكفاية عن من سواها ، لان قريشا افصح العرب لسانا وافضلها بيانا ، واحضرها جوابا ، واحسنها بديهة ، واجمعها عند الكلام قلبا . (١)

وقد عبّر الجاحظ عن فضل قريش البياني بقوله ايضا :

"... قال معاوية يوما :" من افصح الناس ؟" فقال قائل :" قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق ، وتياسنوا عن عنعنة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليس لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير." قال :" من هم ؟" قال : " قريش ....." (٢)

وقد لاحظ الجاحظ ارتباطا بين فصاحة التنزيل القرآني وفصاحة الوسط القرشي الذى استقبله ، انسجاما مع نظرته العامة في هذا الشأن التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشرى الذى تنزل فيه قال :

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في تفضيل النطق على الصمت ،" رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٨ و" في الاوطان والبلدان ،" المصدر نفسه ، ٤ : ١١٧ . والملاحظ اعلاه ان الجاحظ فهم كلمة" بيد" بمعنى " من اجل" . وهذا رأى ابن هشام(ت ١٣٦٠م) في مغني اللبيب عن كتب الاعاريب (دمشق : دار الفكر، ١٩٦٤) ج ١ : ١٢٢ ، ورأى الزبيدى (١٧٣٢ - ١٧٩١م) في تاج العروس(مصر : المطبعة الخيرية ١٢٨١هـ) ، ج ٢ : ٣٠٨ ورأى الفيروزبادى (١٣٢٩ - ١٤١٤م) في القاموس المحيط (القاهرة ، ١٢٨١هـ) ، ج ١ : ٣٠٤ . والمصدران الاخيران اجازا ان تأتي بيد بمعنى " غير" ايضا . وقد حفلت المصادر اللغوية التالية بالاتجاه الآخر لمعنى بيد . انظر ابن الاثير (١١٤٩ - ١٢١٠ م) في النهاية في غريب الحديث (مصر : المطبعة العثمانية ، ١٣١١) ج ١ : ١٠٣ وابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١م) في لسان العرب (بيروت ، دار لسان العرب) ج ١ : ٢٩٤ وكذلك الجوهرى (ت ١٠٠٣م) في الصحاح (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩) ج ٢ : ٤٥ وابن مالك في الالفية (راجع قاموس Lane ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٦٨)ج ١ : ٢٨١ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ .

" . . . ولما كان اعجب الامور عند قوم فرعون السحر، . . . بعث اللـــه موسى عليه السلام على ابطاله وتوهينه وكشف ضعفه واظهاره . . .
وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الاغلب على اهله وعلى خاصة علمائه الطب فارسله تعالى باحياء الموتى اذ كانت غايتهم علاج المرضى . . .
وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم ،كان اغلب الامور عليهم ،واحسنها عندهم ،واجلّها في صدورهم ،حسن البيان ونظم ضروب الكلام ،مع علمهم له ،وانفرادهم به . فحين شاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم وفـاق الناس خطباؤهم ، بعثه الله عز وجل ،فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكثر منه . . . فمن احكم الحكمة ارسال كل نبي بما يفحم اعجب الامور عندهم ويبطل اقوى الاشياء في ظنهم ."(١)

وما بانت به قريش العرب ،ممارستها التجارة بطريقة مغايرة لسلوك تجار العالم آنذاك . فعلى الرغم ان قريشا كانت تسكن بواد غير ذى زرع ،وتتحمل مشقات التجارة فان ذلك لم يزدها الا جودا وكرما . قال الجاحظ :

" . . . وليس قولهم : قرشي لقولهم : هاشمي وزهرى وتيمي ،ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش ،فهو افخم اسمائهم واشرف انسابهم ، وهو الاسم الذى نوّه الله تعالى به في كتابه (٢) . . . فلما تركوا الغـــزو لم تبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم ، والى النجاشي بالحبشة ، والى المقوقس بمصر ،وصاروا باجمعهم تجارا خلطاء .
وقد تعجب الناس من ثبات قريش وجزالة عطاياهم واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة . فكان في ثبات جودهم العالي على جود الاجواد وهم قوم لا كسب لهم الا من التجارة عجب من العجب . . .
فلو انه كان معهم من الفضل ما يبهر العقول ومن المجد ما تحرج فيـه العيون ،لما اصلح طبائعهم الشيء الذى يفسد جميع الامة . . . فلما كانوا بواد غير ذى زرع ويحتاجون الى الاقوات ، واقامة القرى ،لم يجدوا بدا من ان يتكلفوا ما يعيشهم ويصلح شأنهم ،فاخذوا الايلاف (٣) ورحلوا

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في حجج النبوة ،" رسائل الجاحظ ،٣ : ٢٧٨-٢٨٠ .

(٢) انظر سورة قريش .

(٣) الايلاف المذكور هو الذمام والعهد والاجارة . كان الاخوة الاربعة هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ،بنو عبد مناف ،يجيرون قريشا . اما هاشم فانه اخذ حبلا من ملك الروم واخذ نوفل حبلا من كسرى واخذ عبد شمس حبلا من النجاشي =

الى الملوك بالتجارات ."(١)

اى ان التجارة آنذاك لم تخل من مشقة وكانت تعرض صاحبها للمذلة " فإن التاجر قد استشعر الذل وتغشى ثوب المذلة "(٢) وقد ادّت التجارة - كما حدث مع تجار الابلّة ومحتكرى اهل الحيرة الى ان ثلمت في اعراضهم وانتهكت من مروءاتهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لتجار قريش . فالتجارة اورثت في نفوس القرشيين من السعة بقدر ما اورثت معاصريهم من الضيق . قال الجاحظ في ذلك :

"... ولو كانت علتهم في ذلك كعلة تجار الابلّة ، ومحتكرى اهل الحيرة ، لثلمت دقّة التجارة في اعراضهم ، ولنهك سخف التربّح من مروءاتهم ، ولصغر ذلك من اقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من علوّهم عند اهل الشرق . وكيف وقد ارتحلت اليهم الشعراء كما ارتحلت الى الملوك العظماء ، فأسنوا لهم العطية ، ولم يقصّروا عن غاية ، فسقوا الحجيج واقاموا القرى لزوار الله تعالى ، وهم بواد غير ذى زرع ... ولقد اورث ذلك صدورهم من السعة بقدر ما اورث غيرهم من الضيق . ومن قاس تجار الكرخ وباعته ، وتجار الاهواز والبصرة ، على تجار قريش ، فقد اخطأ مواضع القياس وجهل اقدار العلل . فانظر كم بين علّتهم وعلّة غيرهم ... ومن العجب ان كسبهم لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خلقة في الطباع ..."(٣)

وانسجاما مع نظرة الجاحظ التي ترى تناسبا بين النبوّة والوسط البشرى الذى استقبلها ، لاحظ الجاحظ ان النبي محمدا قد مارس التجارة الشائعة بين قومه

= واخذ المطلب حبلا من ملوك حمير . فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بحبال هؤلاء الاخوة ، فلا يتعرّض لهم . انظر الجاحظ ، "كتاب في المعلمين" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٤٧ .

(١) انظر الجاحظ ، رسالة في مدح التجارة ، " رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٦ ؛ " كتاب في الاوطان والبلدان ، " المصدر نفسه ، ٤ : ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ . وكتاب في المعلمين ، " المصدر نفسه ، ٣ : ٤٦ .

(٢) الجاحظ ، كتاب في المعلمين ، " رسائل الجاحظ ، ٣ : ٤٩

(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٥-٤٧ ، " وكتاب الاوطان والبلدان ، " المصدر نفسه ، ٤ : ١١٦ .

اذ " شخص فيها مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ،"(١) قال :

" . . . وقد علم المسلمون ان خيرة الله تعالى من خلقه ،وصفيّه من عباده ،والمؤتمن على وحيه ، من اهل بيت التجارة ، وهي معوّلهم وعليها معتمدهم ، وهي صناعة سلفهم ، وسيرة خلفهم . وقد بلغتك بسالتهم ،ووصفت لك جلادتهم ،ونعتت لك احلامهم ، وتقرر لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبذلهم ومواساتهم . وبالتجارة كانوا يعرفون . ولذلك قالت كاهنة اليمن :" للّه درّ الديار ،لقريش التجار ." . . . وقد غبر النبي برهة من دهره تاجرا . . . ولشهرة امره في البيع والشراء قال المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) ،(٢) فاوحى الله اليه : (وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق .) (٣) فاخبر ان الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات."(٤)

هكذا فضلت قريش سائر قبائل العرب باصلها وحسبها وحماستها وفصاحتها وممارستها التجارة بسخاء ،مع حسن ضيافة القبائل العربية التي كانت تقر لها بالسيادة عليهم اثناء خدمتها البيت العتيق .

٣ - ما يفضل به الهاشميون سائر قريش :

يلاحظ الدارس توزيع الخصال التي فضل بها الهاشميون القرشيين ،على فترات ثلاث : الفترة السابقة للنبوة ، والفترة المعاصرة لها ، والفترة التي تلتها الى عصر الجاحظ .

(أ) - فضل الهاشميين في الجاهلية :

١ - فضل هاشم على بقية بني عبد مناف في الجاهلية :

من بني عبد مناف(٥) الاربعة ، المطلب ونوفل وعبد شمس وهاشم ، فضل الاخير سائر اخوته واليه تعود نسبة " هاشمي " او لفظ " الهاشميين" لكونه الجد الاعلى للنبي محمد . فهاشم هو والد عبد المطلب ، الجد المباشر لمحمد . وقد رأى الجاحظ ان خصلة من خصال الخير لم تكن اغلب او اظهر من اختها في نفس هاشم . قال :

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في مدح التجارة ،" رسائل الجاحظ ،٤ : ٢٥٦ .
(٢) الفرقان : ٧ .
(٣) الفرقان : ٢٠ .
(٤) الجاحظ ،" رسالة في مدح التجارة ،" رسائل الجاحظ ،٤ : ٢٥٥-٢٥٧ .
(٥) عبد مناف بن قُصَيّ والد هاشم . انظر ابن حزم ،جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال (مصر : دار المعارف ،١٩٤٨) ص ١٢ .

"... ولذلك قالوا : "احلم من الاحنف وما هو الا في حلم معاوية ،" ولم يقولوا :" هو احلم من هاشم ،" لان خصاله متساوية ، وخلاله مشرفة متوازية ، وكلها كان غالبا ظاهرا وقاهرا غامرا ، وبعد فمن يستطيع ان يصف هاشما بالحلم دون غيره من الاخلاق والافعال حتى يخصه به دون كل شيء فيه من الفضل ؟"(١)

وقد فضل هاشم اخوته حين سبقهم الى اخذ الايلاف لقريش . والايلاف هو ذلك العهد او الامان الذى يوفر حرية التحرك التجارى لقبيلة قريش (٢) . ولا يعني ذلك ان اخوة هاشم لم يكن لهم حظ فيه ، فهم جميعا "اصحاب الايلاف"(٣) الا ان هاشما له فضل السبق والمبادرة . قال الجاحظ :

"... لقد اجمعت الرواة على ان اول من اخذ الايلاف لقريش هاشم ابن عبد مناف . فلما مات ،قام اخوه المطلب مقامه ،فلما مات ،قام عبد شمس مقامه ، فلما مات ، قام نوفل مقامه ، وكان اصغرهم - والايلاف هو ان هاشما كان رجلا كثير السفر والتجارة ، فكان يسافر في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن ، نحو العباهلة باليمن واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحا فيما يربح وساق لهم ابلا مع ابله . فكفاهم مؤونة الاسفار على ان يكفوه مؤونة الاعداء في طريقه ومنصرفه ؛ فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ،وكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا . فاخصبت قريش بذلك وحملت معه اموالها واتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال ابو عثمان : وقيل ان تفسير قوله تعالى :" وآمنهم من خوف " هو خوف من كان هؤلاء الاخوة يمرون به من القبائل والاعداء وهم مغتربون ومعهم الاموال ... وقد فسره قوم بغير ذلك ... وكيفما كان الايلاف ،فان هاشما كان القائم به دون غيره من اخوته . (٤)

---

(١) الجاحظ ،كتاب الحيوان ٢ : ٩٢ ،وكتاب " فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ (تحقيق حسن السندوبي)ص ١٠٤ .

(٢) انظر : Encyclopaedia of Islam, new ed.,s.v. "Ilāf," by Ed. حيث يرد ان الايلاف الذى حققه هاشم ،تم مع امبراطور الروم لحماية قافلته الى سوريا وذلك سنة ٤٦٧ م.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس ،" رسائل الجاحظ (تحقيق السندوبي)ص ٧٠-٧١ . والاشارة الثانية لهاشم واخوته في الجاهلية نجدها في المصدر نفسه ،ص ١١٤ ،تضع ذرية بني عبد شمس وبني نوفل في مقدمة من عادى النبي ورسالته مع ان عبد شمس توأم هاشم . انظر جمهرة النسب ،ص ١٢ .

ومن الفضل المأثور لهاشم قيامه بالرفادة والسقاية اى توفير الطعام والماء لزوار البيت . وقد عرف باسمه اثر تهشيم الطعام لهم دون سائر قومه من اهل مكة ، قال : (والشعر لابن الزبعرى) :

" كانت قريش بيضة فتفلّقت — فالمحّ خالصه لعبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش — والقائلون هلمّ للاضياف
عمرو العلى ، هشم الثريد لقومه — ورجال مكة مسنتون عجاف " (١)

٢ - فضل عبد المطلب بن هاشم على سائر اخوته في الجاهلية

مثلما فضل هاشم اخوته من بني عبد مناف ، فضل عبد المطلب بن هاشم سائر اخوته وهم: أسد ونضلة وابو صيفي (٢) . ولم يعن الجاحظ في جميع كتاباته بالاشارة اليهم ، باستثناء فضل التصاهر الكائن لفاطمة بنت اسد بن هاشم مع ابي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم ، مما جعلها أمّا لجميع نسل ابي طالب (٣) .

وقد استقطب عبد المطلب بن هاشم قدرا كبيرا من الفضل الذى حظي به والده ، دون سائر بني هاشم والقرشيين والعرب وذلك لتمتعه بطائفة من الخصال عدّها الجاحظ " ارهاصا لنبوة النبي محمد وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة . " (٤) قال الجاحظ في الخصال التي فضل بها عبد المطلب ، جد النبي ، سائر قريش تحقيقا للغاية المذكورة التي كانت قريش تهيّأ لها :

" . . . وعبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ، واجمل الناس جمالا واظهرهم جودا واكملهم كمالا . فهو صاحب الفيل والطير الابابيل ، صاحب زمزم وساقي الحجيج . . . والشرف يتفاضل ، وقد اعطى الله

---

(١) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١٣ .
(٣) الجاحظ ، " من كتابه في الاوطان والبلدان ، " رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٢ . وكتاب " فضل هاشم على عبد شمس ، " المصدر نفسه (تحقيق السندوبي) ص ١٠٩
(٤) انظر الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، (تحقيق السندوبي) ، ص ٦٩ - ٧٠ .

عبد المطلب في زمانه ، واجرى على يديه واظهر من كرامته ما لا يعرف مثله الا لنبي مرسل ،وان في كلامه لابرهة صاحب الفيل (١) وتوعده اياه برب الكعبة ،وتحقيق قوله من الله ونصرة وعيده بحبس الفيل ،وقتل اصحابه بالطير الابابيل وحجارة السجّيل حتى تركوا كالعصف المأكول ، لاعجب البرهانات واسنى الكرامات ؛وانما كان ذلك ارهاصا لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة ."(٢)

ومثلما كانت خصال الخير مفاضة على والده هاشم بشكل متوازن ،كذلك هي الآن مع عبد المطلب الذى اصبح" سيد الوادى". قال الجاحظ :

"... لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير ،كما انه ليس لقريش في العرب نظير ،وكما انه ليس للعرب في الناس نظير. فعبد المطلب لم تكن فيه خصلة اغلب من اختها ، وتكاملت فيه وتساوت وتوافت اليه .فقالوا عند ذلك :" سيّد الوادى "و" سيّد قريش ،" واذا قالوا :" سيّد قريش ،" فقد قالوا :" سيّد العرب ،" واذا قالوا :" سيّد العرب ،" فقد قالوا : " سيّد الناس" !(٣)

ان خصال عبد المطلب هذه ، لم تدفعه الى الكبر وفي هذا فضل لا ينكر :

"... ولم يدع الربوبية ملك قط الا فرعون ... ولا كان فوق الملوك الاعاظم والجلة الاكابر ،بل دون كثير منهم في الحسب وشرف الملك وكرم الرعية . ولو كان الكبر فضيلة ،وفي التيه مروءة ،لما رغب عنه بنو هاشم ، ولكان عبد المطلب اولى الناس منه بالغاية واحقهم باقصى النهاية."(٤)

---

(١) حسب النقوشات الحميرية ،ابرهة هو عبد لتاجر بيزنطي حكم جنوبي الجزيرة العربية بعد ان قام بثورة ضد قائده المعيّن من قبل ملك الحبشة ،وذلك قبل سنة ٥٣١م. لكن المصادر الاسلامية كالطبرى وابن هشام نسبت اليه قيادته لحملة ضد مكة بهدف جعل كنيسة صنعاء محطة للحجاج عوضا عن مكة وذلك سنة مولد النبي محمد عام ٥٧٠م-انظر :
Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Abraha," by A.F. Beeston.

(٢) الجاحظ ،" كتاب فضل هاشم على عبد شمس،" رسائل الجاحظ ،تحقيق السندوبي، ص ٦٩-٧٠.

(٣) الجاحظ ،كتاب الحيوان ،٢ : ٢٤٥-٢٤٦.

(٤) الجاحظ ،" رسالة في النبل وذم الكبر،" رسائل الجاحظ ،ج ٤ : ١٨٣ .

٣ - فضل بني عبد المطلب على قريش في الجاهلية :

وقد رأى الجاحظ ان مساهمة الزبير بن عبد المطلب ، عم النبي ، في الدعوة الى تأسيس حلف الفضول[1] والمشاركة فيه ، التي فاقت مساهمة غيره من بطون قريش ممن شهد الحلف ولم يقم بأمره ، من ابرز سمات الفضل التاريخي المستحق لبني هاشم - اى ذرية عبد المطلب - قبل الاسلام :

"... وبنو هاشم هم الذين سمّوا ذلك الحلف" حلف الفضول" وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لامره. فما ظنك بمن شهده ولم يقم بأمره ؟ وهو اشرف حلف كان في العرب كلها ، واكرم عقد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الاسلام. ولفضل ذلك الحلف وفضل اهله ، سمي حلف الفضول. فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطلب، وبني اسد بن عبد العزّى ، وبني زهرة وبني تيم ابن مرة ، تعاقدوا في شهر حرام قياما يتماسحون بأكفهم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال ، يمنعون القوي من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب. قال الزبير بن عبد المطلب الذى نهض فيه ودعا اليه وحث عليه وهو الذى سمّاه " حلف الفضول" :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم	وان كنا جميعا اهل دار
نسميه الفضول اذا عقدنا	يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من يطوف البيت انّا	اباة الضيم نهجر كل عار"[3]

---

(١) فيما يتعلق ببواعث تأسيسه راجع :
Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ḥilf al Fuḍūl," by Charles Pellat.
وفيه يذكر ان حلف الفضول كان تقليدا شائعا في بني جرهم لاجيال عديدة وان الزبير بن عبد المطلب عدّه نوعا من الفروسية والنبل بعد حروب الفجار التي سبقته .

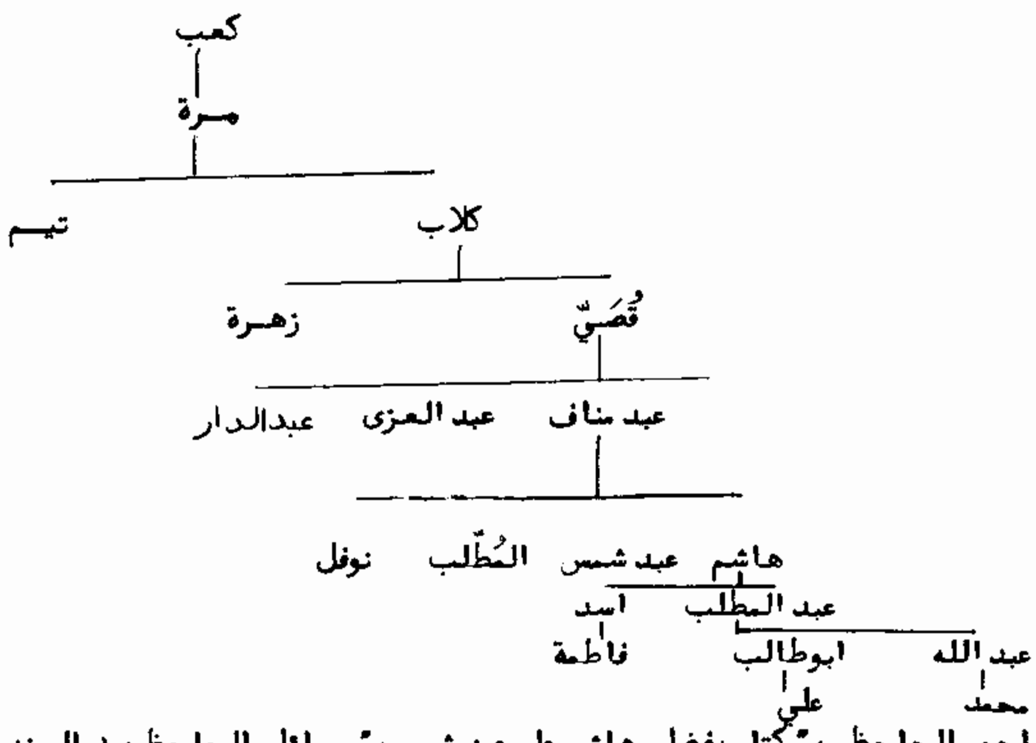
(٢) الاسماء المذكورة هي من اشهر بطون قريش . فبني المطلب هم اولاد عم لبني هاشم ، انظر ابن حزم ، الجمهرة ، ص ٦٥-٦٦ . واما بني اسد بن عبد العزى فهم اولاد عم لبني عبد مناف (المصدر نفسه : ١٠٨) . اما بني زهرة فيعود نسبهم الى زهرة اخي قصيّ ، الجد المباشر لعبد مناف وعبد العزى وعبد الدار. (المصدر نفسه : ١١٩-١٢٦) . واما بني تيم بن مرة فيرتقون في نسبهم الى مرة بن كعب ، والجد الاعلى لكلاب ، والد قصي وزهرة ، وهما جدا بني هاشم . (المصدر نفسه : ١٢٦-١٣١)
وانظر الصورة : ==

وقد خص الجاحظ الزبير بن عبد المطلب ، الذى دعا الى حلف الفضـــــول ، بالشجاعة والجود واستشهد بأبيات له يقول فيها :

ولولا الحمس لم يلبس رجال   ثياب اعزة حتى يموتـــوا
ثيابهم شمال او عبـــاء   بها دنس كما دنس الحميت
ولكنا خلقنا اذا خلقنــا   لنا الحبرات والمسك الفتيت
وكأس لو تبين لهم كلامــا   لقالت انما لهم سبـــيت
تبين لنا القذى ان كان فيها   رصين الحلم يشربها هبيـت
ويقطع نخوة المختال عنــا   رقاق الحد ضربته صمــوت
بكف مجرّب لاعيب فيـــه   اذا لقى الكريهة يستميت (١)

وانسجاما مع عادة العرب في التعالي على مصائبها ، فان ابا طالب بن عبد المطلب حين عيّره بعض نسائه بالعرج ، اكد على ان ذلك لا ينقص من تدبير ولا يمنع من سوءدد . قـــال :

(=)



(=) راجع الجاحظ ، "كتاب فضل هاشم على عبد شمس" رسائل الجاحظ ، (السندوبي) ص ٧١ - ٧٢ .

(١) الجاحظ ، كتاب" فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٧٣ .

قالت عرجتَ فقد عرجتُ فما الذى | انكرتِ من جلدي وحسن فعالي ؟
وانا ابن بجد تهاوفي صيّا بهـــا | وسليل كل مسوّد مفضــــال
ادع الرفاحة لا اريد نسـاءها | كيما افيد رغائب الامــــوال
واكف سهمي عن وجوه جمـــة | حتى تصيب مقاتل البخّـال (١)

اما صورة سائر ابناء عبد المطلب قبل الاسلام فيعكسها قول الجاحظ :

"... وكما روى الناس ،ان عبد المطلب ولد عشرة (٢) ... وان عامر ابن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون ،قال : " بهؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة ." (٣)

(ب) فضلُ بني هاشم" في الاسلام

لعله اصبح واضحا ان لفظ " بني هاشم " الذى حفلت به آثار الجاحظ ، يقصد به ذرية عبد المطلب الذى استأثر بالفضل الهاشمي الذى شاع من بعده في معظم ذريته ، وبالتحديد في النبي محمد وآل ابي طالب وآل العباس . قال :

" وليس على ظهر الارض هاشمي الا من ولد عبدالمطلب بن هاشم"(٤)

وان اول ما فضـــل به بنو هاشم سائر قريش ،هو النبوة . قال الجاحظ :

"... ونحن ذاكرون ـ وبالله التوفيق ـ الخصال التي بانت بهـــا بنو هاشم دون قريش .فاول ذلك النبوة ،التي هي جماع خصال الخيـر ، واعلاها وافضلها ، واجلها واسناها ."(٥)

---

(١) الجاحظ ،كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق مرسي الخولي (القاهرة : دار الاعتصام ،١٩٧٢) ص٠١٨و١ ٠

(٢) فضلا عن الزبير بن عبدالمطلب ،هناك عبدالله والد النبي ،وحمزة وابوطالـــب والعباس والحارث والمقوّم وعبد العزّى المعروف بابي لهب . راجع ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ،ص ١٣ ٠

(٣) الجاحظ ،" كتاب فضل هاشم على عبد شمس،" رسائل الجاحظ ،تحقيـــق السندوبي ،ص١٠٨ ٠

(٤) الجاحظ ،" كتاب فضل هاشم على عبد شمس" ،رسائل الجاحظ ،تحقيق السندوبي ، ص ٨٤ ٠

(٥) الجاحظ ،" كتاب الاوطان والبلدان" ،رسائل الجاحظ ،٤ : ١٢١ ٠

وقد منحت النبوّة بني هاشم فضلا تاريخيا تحقق لكل من ساهم مع النبي وآله في دعوته ورسالته :

"... والصديق من صدقهم ،والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواري حواريهم ... ولاخير الا فيهم ، ولهم ،ومنهم ، ومعهم . والنجدة والخير فيهم ،والانصار انصارهم ،والمهاجر من هاجر اليهم ومعهم ...."(١)

والمعني بهذا الفضل مباشرة من بني عبد مناف : بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل الذين ابطأوا عن الاسلام واهله،فامتنع الفضل عنهم :

"... قد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا . وان هاشما والمطلب كانا يدا واحدة ،وان عبد شمس ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان مما ابطأ ببني نوفل عن الاسلام ابطاء اخوتهم من بني عبد شمس ،وكان مما حث بني المطلب على الاسلام فضل محبتهم لبني هاشم ، لان امر النبي كان بينّا وانما كانوا يمتنعون عنه من طريق الحسد والبغضة ...." (٢)

وحين يشيد الجاحظ بفضل بني هاشم في الاسلام ،يلاحظ ان فرعي البيت الهاشمي - الطالبي والعباسي - متساويان في ذلك الفضل ،نظرا لما قدّما من العزائم التامة والادوات الممكنة(٣) في الجود والرأي والعبادة والفقه والنجدة والجمال وسجاحة الخلق . قال الجاحظ في ذلك :

"... وليس على ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولا عربي ولا عجمي الا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر جود علي بن ابي طالب ،وعبد الله ابن جعفر بن ابي طالب ،وعبدالله بن العباس بن عبد المطلب. وان كان الفخر والفضل في الجود والسماح ،فمن مثل هؤلاء في فضلهم؟ اما المنطق والخطب فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير

---

(١) الجاحظ ،رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم ،مجلة لغة العرب ،٤١٥ .

(٢) الجاحظ ،كتاب " فضل هاشم على عبد شمس ،" رسائل الجاحظ ،تحقيق السندوبي ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) الجاحظ ،" رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم" ،مجلة لغة العرب ،ص ٤١٨ . ونص الرسالة نفسها نشره الدكتور محمد طه الحاجري في مجموع رسائل الجاحظ ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣) .

والتحبير ،وعند الارتجال والبديهة ، وعند الاطناب والايجاز فـــي وقتيهما ، وكيف كان كلامه قاعدا وقائما . وكيف كان عبدالله بن العباس - رضوان الله عليه - الذى كان يقال له الحبر والبحر. وان كان الفخـــر بنبل الرأى وصواب القول ،فمن مثل عباس بن عبدالمطلب ،وعبد اللـــه ابن العباس ؟ وبزهد علي بن ابي طالب ودينه يضرب المثل . وان عددتم النسّاك من غير الملوك ،فاين انتم من علي بن الحسين زين العابديـــن ، الذى كان يقال له علي الخيّر وعلي العابد . واين انتم عن علي بن عبدالله بن العباس ؟ . . واين انتم عـــن موســـى بـــن جعفـــر بـــن محمـــد ؟ . . . وكان علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبدالله بن جعفر ، وعلي ابن عبدالله بن العباس ، عليهم السلام يصلّون في كل ليلة الف ركعـــة ، مع الحلم والعلم وكظم الغيظ والصفح الجميل والاجتهاد المبرز . فلوان خصلة من هذه الخصال او داعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم لهلـــك واهلك . واعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن ولم يتحملوا هذه البلوى ،الا لما قدموا من العزائم التامة والادوات الممكنة ،ولم يكن الله ليزيدهم فـــي المحنة ، الا وهم يزدادون على شدة المحن ، خيرا وعلى التكشف ،تهذيبا . . . واما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ،فان ذكرتموه لم يكن لكم فيـــه احد مثل علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ، ابني علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد ،الذى ملأ الدنيا علمـــه وفقهه . ويقال ان ابا حنيفة من تلامذته . ومن مثل علي بن ابي طالب في النجدة والبسالة والشجاعة ؟ وقد وقع اتفاق اوليائه واعدائه على انـــه اشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رســوله ومن مثل الحسين بن علي ؟ . . . . ومن لكم مثل محمد وابراهيم ابني عبدالله ؟ . . . وان كان الشرف والفخر في الجمال ،والكمال والبسطة في الجســـم وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ؟ ومن مثل علي بن عبـــد الله بن العباس وولده ؟ وكان الحسن بن علي اصبح الناس وجها . كان يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عبدالله بن الحســــن المحض . اما الحسن بن علي ابن ابي طالب ،فاشبه الناس برسول اللـــه خلقا وخلقا . وان كان الفخر بالبشر وطلاقة الاوجه وسجاحة الاخـــلاق فمن مثل علي بن ابي طالب ؟ وما خص به آل ابي طالب من الفضائـــل ان اول هاشمي ، هاشمي الابوين كان في الدنيا ولد لابي طالب: لان اباهم عبد مناف ،وهو ابوطالب بن شيبة وهو عبد المطلب بن هاشم وهـــو عمـــرو وهو ابو شيبة . . . ." (١)

---

(١) ==

(ج) فضل بني هاشم عصر الجاحظ

ويبدو ان فضل بني هاشم على سائر العرب مستمر في جميع العصور بما فيه عصر الجاحظ . قال :

"... ثم ليس في الارض احسن اخلاقا ولا اطهر بشرا ولا ادوم دماثة ولا ألين عريكة ولا اطيب عشيرة ولا ابعد من كبر منهم . والحدة لا يكاد يعدمها الحجازى والتهامي . الا ان حليمهم لا يشق غباره ، وذلك في الخاص. والجمهور على خلاف ذلك حتى تصير الى بني هاشم. فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكنا نضمن انهم اتم الناس فضلا واقلهم نقصا وفيهم مع فرط جودهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل مالا يوجد مع البخيل الموسر والذليل المكثر اللذين يجعلان البشر وقاية دون المال . وهم في كل اوقاتهم وجميع اعصارهم فوق من هم ، على مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة والمروءة الظاهرة والاخلاق المرضية . وليس في الارض قوم انطق خطيبا ولا اكثر بليغا من غير تكلف من بني هاشم."(١)

وللجاحظ رأى اضافي في معاصريه من بني هاشم يعكس فيه مفهومه لاثر البيئة الجغرافية على الشكل والخُلُق . قال :

(==)انظر : الجاحظ ، " رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم ، " مجلة لغة العرب ، ص ٤١٨ و ٤١٩ . وكتاب " فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، (السندوبي) ص ٨٢-٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٧-١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ ، و" كتاب الاوطان والبلدان " في رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٢ . والاشارة الاخيرة في النص

اشارة الى التصاهر الذى تم بين ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وفاطمة ابنة اسد بن هاشم ، مما جعل فاطمة اما لجميع ولد ابي طالب : طالب وجعفر وعقيل وعلي . قال الجاحظ في هذا المعنى : " من يستطيع ان يسامي رجالا ولدهم هاشم مرتين ، من قبل ابيهم ومن قبل امهم ؟ "

. انظر : الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ١٠٩ .

(١) الجاحظ ، " رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم ، " مجلة لغة العرب ، ص ٤١٧ و ٤١٩ .

"وقد علمنا ان لجماعة بني هاشم طابعا في وجوههم يستبين به كرم العتـــق وكرم النجار ، وليس ذلك لغيرهم . ولقد كادت الاهواز تفسد هذا المعنى على هاشمية الاهواز . ولولا ان الله غالب على امره ، لقد كادت طمســت على ذلك العتق ومحته ...."(١)

بهذه الصفات المذكورة لبني هاشم ، الممهّدة والمرافقة لنبوة محمد ، اصبح بنــو هاشم كما يقول الجاحظ :

"... موضع العذار من خد الفرس ، والعقد من لبّة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذهب المصفى ، وموضع المحّة من البيضة ، والعين مــن الرأس ، والروح من البدن . وهم الانف المقدم والسنام الاكبر ، والدرة الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الاحمر ... "(٢)

بيد انه لم يفت الجاحظ الاشارة الى ان هؤلاء القوم ، كجميع البشر ، يخطئــون ويصيبون ، الا ان حظهم من النقص دون حظ سائر البشر . قال :

"... ثم لا تجد عندافسدهم شيئا من المنكر ، الا رأيت في غيره مــن الناس اكثر منه من مشايخ القبائل وجمهور العشائر ."(٣)

٤- مايفضل به محمّد العالمين

رأى الجاحظ ان فضل محمّد على العالمين يأتي من كونه قد "بعث من خيــرة قريش ."(٤) فيما ان بني هاشم افضل قريش ، وقريش افضل العرب ، والعرب افضل الامم ، فان محمدا بالتالي يفضل العالمين . وتفسير ذلك لديــــه ان محمّدا خُــصَّ

---

(١) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥-١٣٦ .
(٢) انظر : الجاحظ ، "رسالة مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٣ .
(٣) انظر : "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، "مجلة لغة العـــرب" ، ص ٤١٧ .
(٤) الجاحظ ، "كتاب فضل بني هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، تحقيــق السندوبي ، ص ٨٢ .

بالنبوّة " التي تمثل جماع خصال الخير واعلاها وافضلها "،(١) فاصبح كما يقول الجاحظ " خيرة الله تعالى من خلقه وصفيّه من عباده والموءتمن على وحيه "؛(٢) لانه اوفر الخلق حظا في التحلّي بما قسم الله من خيرات لعباده . قال :

" . . . ولم يقسم الله مذهبا رضيّا ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا الا وحظه منه اوفر الحظوظ ، وقَسْمه فيه اجزل الاقسام " (٣)

وفي مفهوم الجاحظ ان محمّدا قد فضل العالمين لتمتعه بطائفة من الخصائص الخلقية لم يشركه فيها بشر ؛ اما تفوقه الخلقي فواضح في قول الجاحظ :

" . . . وآية اخرى لا يعرفها الا الخاصة . . . ، وهي الاخلاق التي لم تجتمع لبشر قط قبله ، ولا تجتمع لبشر بعده . وذلك انّا لم نر ولم نسمع لاحد قط كصبره ، ولا كحلمه ، ولا كوفائه ، ولا كزهده ، ولا كجوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشرته ، ولا كتواضعه ، ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته اذا صمت ، ولا كقوله اذا قال ، ولا كعجيب منشئه ، ولا كقلة تلونه ولا كعفوه ، ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه . . . فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهرى ، ان يحدّث ان محمّدا عليه السلام جال جولة قط ، ولا فرّ فرّة قط ، ولا خام عن غزوة ولا هاب حرب من كاثره . (٤)

وقد اكد الجاحظ ايضا على تفوق النبي البياني حين قال :

" . . . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يسبقه اليه عربي ، ولا شاركه فيه اعجمي ، ولم يدّع لاحد ، ولا ادعاه احد مما صار مستعملا ومثلا سائرا . . . وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمّد (وما انا من المتكلفين) . . . (٥) وقد استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي . . .

---

(١) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢١ .

(٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ٣ : ٢٥٧ .

(٣) الجاحظ ، رسالة مدح التجارة " ، المصدر نفسه ٤ : ٢٥٥-٢٥٦ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ٣ : ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٥) سورة ص : ٨٦ .

فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حفّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويسّر بالتوفيق . وهو الكلام الذى القى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ،وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام . . . لم يقم له خصم ولا افحمه خطيب . . . لا يحتج الا بالصدق ولا يطلب الفلج الا بالحق . . . لم يسمع الناس بكلام قط اعمّ نفعا ، ولا اقصد لفظا ،ولا احسن موقعا ،ولا افصح معنى ،من كلامه صلى الله عليه وسلم . . . والذى يدلّك على ان الله عزّ وجلّ قد خصه بالايجاز وقلة عدد اللفظ ، مع كثرة المعاني ، قوله صلى الله عليه وسلم: " نصرت بالصّبا ،واعطيت جوامع الكلم ." (١)

وقد لاحظ الجاحظ ان تفوق النبي البياني والخلقي كان يخضع لاشراف الهي محكم بدلالة قول النبي : " نقلت من الاصلاب الزاكية الى الارحام الطاهرة ،وما افترقت فرقتان الا كنت في خيرهما ." (٢) وقد فصّل الجاحظ كيفية ذلك الاشراف وتلك التهيئة لجعل الله النبي مستودع آياته ، بقوله :

" . . . فنزّه الله رسوله ،ولم يعلمه الكتاب والحساب، ولم يرغّبه في صنعة الكلام ،والتعبّد لطلب الالفاظ ، والتكلّف لاستخراج المعاني ،فجمع له باله كله في الدعاء الى الله ،والصبر عليه ،والمجاهدة فيه ،والانبتات اليه ،والميل الى كل ما قرّب منه ،فاعطاه الاخلاص الذى لا يشوبه رياء ، واليقين الذى لا يطوره شك ، والعزم المتمكن ، والقوة الفاضلة . . . فانما نقصه ليزيده ،ومنعه ليعطيه ."(٣)

---

(١) انظر البخارى ،باب التعبير : ١١ ،حيث ورد الحديث بلفظ "أوتيت جوامع الكلم " والباب نفسه : ٢٢ ،حيث ورد بلفظ " بعثت بجوامع الكلم ." انظر: ونسنك ،أ .ى. ، ومنسنغ ،ى.ب ،في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ،(ليدن : بريل ،١٩٦٧) ٦ : ٨٥ .وانظر الجاحظ ،البيان والتبيين ، ٢ : ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ .

(٢) الجاحظ ، "كتاب فضل هاشم على عبد شمس ،" رسائل الجاحظ ،تحقيق السندوبي ،ص ٨٢ . ونصّ الحديث :"ثم فرّقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين" في مسند احمد ابن حنبل ،الباب الرابع : ١٦٦ . او بلفظ " فجعلني من خيرهم" في سنن الترمذى باب المناقب : ١ . انظر مادة "فرق " ،المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ،ج ٥ ،١٣٦ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ،٤ : ٣٠ - ٣٢ .

واذا كان الله قد صرف النبي عن الامور التي كان يتكلفها قومه ويتنافسون فيها ، تمييزا للنبوّة عن الشعر ،فان ذلك لم يمنع النبي ان يصبح ،بالنبوّة ،افصح العرب لان حكمة الله في رسالاته تقتضي تناسبا بين النبوة والوسط البشرى الذى يستقبلها ، لكي يكون التحدى من جنس ما تفوق به ذلك الوسط . قال الجاحظ :

" ولما كان اعجب الامور عند قوم فرعون السحر ، . . . بعث الله موسى عليه السلام على ابطاله وتوهينه ،وكشف ضعفه واظهاره ،ونقض اصله . . . مع ما اعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات. وكذلك زمن عيسى عليه السلام . . . وكذلك دهر محمّد صلى الله عليه وسلم ، كان اغلب الامور عليهم واحسنها عندهم واجلها في صدورهم ،حسن البيان ،ونظم ضروب الكلام ،مع علمهم له وانفرادهم به . فحين شاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ،بعثه الله عزّ وجلّ ، فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكثر منه . . . وكان ذلك من اعجب ما آتاه الله نبيا قط مع سائر ما جاء به من الآيات ،ومن ضروب البرهانات . ولكل شيء باب ومأتى ،واختصار وتقريب . فمن احكم الحكمة ارسال كل نبي بما يفحم اعجب الامور عندهم ،ويبطل اقوى الاشياء في ظنهم . . . وان محمّدا صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها في العقل موقع ،كموقع فلق البحر من العين ،وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة ،مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء ،والدهاة والحلماء ، واصحاب الرأى والمكيدة ،والتجارب والنظر في العاقبة : ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواى ،وصدقتم في تكذيبي ."(١)

وقد عبر الجاحظ عن التناسب بين المعجزة والوسط البشرى الذى نزلت فيه بقوله ايضا :

" واعلم ان الله تعالى لم يرسل رسولا ولا بعث نبيا الا من كان فضله في كلامه وبيانه على فضل المبعوث اليه . فكان النبي صلى الله عليه وسلم افصح العرب لسانا ،واحسنهم بيانا ،واسهلهم مخارج للكلام واكثرهم فوائد من المعاني ،لانه كان من جماهير العرب : مولده في بني هاشم ،

---

(١) الجاحظ ،" رسالة حجج النبوة ،" رسائل الجاحظ ،٣ : ٢٧٣و٢٧٨-٢٨٠ .

واخواله من بني زهرة ،ورضاعه في بني سعد بن بكر ،ومنشوءه في قريش. . . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :"انا افصح العرب بيد اني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر."(١) ولو لم يكن ما عددنا من هؤلاء الأحياء الا قريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها . . . لان قريشا افصح العرب لسانا وافضلها بيانا ،واحضرها جوابا ،واحسنها بديهة ،واجمعها عند الكلام قلبا ."(٢)

وما خص به محمّد انه ارسل للعالمين ، في حين ان الرسالات التي سبقته كانت تخص امة دون غيرها . وهذه النقلة من المحلية الى العالمية هي فضل لنبوة محمّد بن عبدالله الذى اصبح رسولا لجميع الامم؛ وبذلك يكون قد فتح بعدا جديدا من ابعاد الرسالات السماوية مع الاجناس والامم. قال الجاحظ :

". . . والله عز وجل قد بعث محمّدا صلى الله عليه وسلم الى العجم فضلا عن العرب. . . وقد جعل الله قوم كل نبي هم المبلّغين والحجّة. الا ترى انّا نزعم ان عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم ،من جهة اعلام العرب العجم انهم كانوا عن ذلك عجزة . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :خصصت باموره:" منها اني بعثت الى الاحمر والاسود . . . وجعلت لي الارض طهورا ."(٣) فدلّ بذلك على ان غيره من الرسل انما كان يرسل الى الخاص. وليس يجوز لمن عرف صدق ذلك الرسول ، من الامم ، ان يكذّبه ،وينكر دعواه. . . هذا فرق من بعث الى البعض ومن بعث الى الجميع."(٤)

وبذكر الخصال التي فضل بها محمد العرب والعجم ،نكون قد انهينا القسم المتعلق بنظرية الجاحظ في حسنات العرب ونأتي الى عرض آرائه في مساوىء العرب.

---

(١) لم يرد الحديث في كتب الحديث النبوى ،لكنه ورد في لسان العرب ،مادة" بيد" (بيروت : دار صادر ،١٩٥٥) ٣، ٩٩: نقلا عن ابن الاثير في النهاية في غريب الحديث.

(٢) الجاحظ ،" رسالة في تفضيل النطق على الصمت "، رسائل الجاحظ ،٤ : ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) نص الحديث في الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج ،باب المساجد : ٣ ،ومسند الدارمي ،باب السير : ٢٨ . انظر: المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى.

(٤) الجاحظ ،البيان والتبيين ،٣ : ٢٩١ ، ٢٩٥ - ٢٩٦ .

ان الجاحظ في مآخذه على العرب انطلق من الجاهلية مرورا بالاسلام وحكم بني امية وبني العباس . ونعرض آراءه في كل على حدة .

١ ـ مآخذه على عرب الجاهلية :

من الخصائص الاجتماعية التي انتقدها الجاحظ في عرب الجاهلية ، اتصافها بالحميّة والجفاء وبغلظ الطباع والوحشية والعرضية والعجرفية والعنجهية . (١)

---

(١) الجاحظ ،" كتاب النبل والتنبل وذم الكبر ،" رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٧٥ - ١٧٦ . والمقصود بالحمية حمية عرب الجاهلية في تعظيم الرؤساء وحرب الاخوة . راجع " رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " مجلة المشرق ، ص ٤٢٦ و٤٣٣ . واما جفاء العرب والاعراب فقد ذكره الجاحظ في موضعين : الاول حين ميز قريشا عن سائر العرب بقوله :" ومن خصالهم انهم لم يشاركوا العرب والاعراب في شيء من جفائهم وغلظ شهواتهم . وكانوا لا يأكلون الضباب ولا شيئا من الحشرات ." انظر : كتاب في الاوطان والبلدان ،" رسائل الجاحظ ، ٤ : ١١٧ . والثاني في نقده لعرب عصره حين قال :" وهؤلاء الجفاة والاعراب المحرومون ومن قل فقهه في الدين اذا خطبوا على المنابر فكأنهم في طباع اولئك المجانين ." البيان ، ٢ : ٢٣٦ .
ويلاحظ ان الجاحظ نظر الى اعراب الجاهلية واعراب عصره نظرة واحدة اعتمادا على قول النبي :" من سكن البادية جفا ." ولكن يجب التفريق بين الخصال الوحشية للاعراب ـ التي هي مادة لمآخذ الجاحظ هنا ـ وبين الخصال الانسانية الرقيقة لقريش التي لم تشارك الاعراب في خصالها . ويجب التمييز ايضا بين مفهوم الجاحظ لفضيلة شظف العيش ـ المتمثلة في اشارة الجاحظ السابقة الى قلة طعام العرب وصبرها وجهادها (انظر البخلاء ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ٢٠١)- وسمات الجفاء وغلظ الطباع والعنجهية والعجرفية التي شاعت بين الاعراب .
والخلاصة ان الجاحظ لم يحتكر مناقب الخير في قريش دون سائر العرب لان الجاحظ يرى ان من العرب من تميز بمناقب قريش . قال : لان قريشا والعرب قد يستوون في مناقب كثيرة . قد يلفى في العرب الجواد البرّ ، وكذلك الحليم والشجاع ." انظر : الجاحظ ،" كتاب الاوطان والبلدان ،" رسائل الجاحظ ، ٤ : ١١٤ .

وقد خص الجاحظ العادات الدينية لعرب الجاهلية وسائر الامم بدراسة خاصة [1] اظهر فيها استواء تهافت الامم في هذه المسألة ،نذكر منها ظواهر الطيرة والايمان بالهاتف ،وعبادة الحجارة التي سمّوها آلهة . اما الطيرة [2] لدى العرب، فقد عقد الجاحظ فصلا طويلا في هذه الظاهرة توجه بايراد نص لاستاذه النظّام تضمن عدم ايمان الاخير بها لانها " باطل" [3] .

واما ظاهرة ايمان العرب بالهاتف، فان الجاحظ لم يملك الا السخرية من اولئك " الاعراب واشباه الاعراب ،الذين لا يتحاشون من الايمان بالهاتف، " [4] ومن ان للهاتف شعرا اذ ان الاعراب " تزعم ان مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقول الفحل على لسانه الشعر" [5] وقد تبنى الجاحظ موقف استاذه المعتزلي [6] النظّام ، في تعليل ظاهرة مكالمة الاعراب للجن وعزيف الجن لهم . قال في تفسير ذلك :

" واصل هذا الامر وابتداؤه ،ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش ،عملت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ،والبعد من الانس ، استوحش . . . واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ،وارتاب ،وتفرّق ذهنه ،وانتقضت اخلاطه ،فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع . . . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه ،واحاديث

---

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح ، " المجلة الآسيوية .

(٢) اصل التطيّر في رأى الجاحظ من الطير اذا مر بارحا او سانحا (من اليمين الى الشمال او العكس) حتى صارت العرب اذا عاينت الاعور من الناس او البهائم تطيّرت عندها ،كما تتطيّر من الطير اذا رأتها على تلك الحال . انظر : الجاحظ ،كتاب الحيوان ،٣ : ٤٤٣- ٤٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ،٣ : ٤٥٣ .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ،٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٧ و٢٠٩ .

(٥) الجاحظ ،المصدر نفسه ،٦ : ٢٢٥ والفحل من الشعراء المتفوق على غيره . وفحول الشعراء هم ـ الذين غلبوا بالهجاء من هجاهم وكل من عارض شاعرا فغلبه . راجع لسان العرب ،لابن منظور ،مادة فحل .

(٦) الجاحظ ،المصدر نفسه ٦ : ٢٤٨ . ويشرح الجاحظ الفرق بين الغيلان والسعلاة بقوله : " السعلاة هي كما يزعم الاعراب الواحدة من الجن قبل ان تتغوّل اى تتلوّن لتفتن السفّار . " انظر الحيوان ٦ : ١٥٨ .

توارثوها فازدادوا بذلك ايمانا ، ونشأ عليه الناشئ ، وربي به الطفل ، فصار احدهم حين يتوسط الفيافي ... عند اول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ... يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة ! ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : قتلتها ... ورافقتها ... وتزوجتها ...
ومما زادهم في هذا الباب ، واغراهم به ، ومد لهم فيه ، انهم ليس يلقون بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الا اعرابيا مثلهم ، والا عاميا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق او الشك ... " (1)

والملاحظ ان للاستيحاش وجهين في نظر الجاحظ : الوجه السلبي كما رأينا ، وهو بالقدر الذى ينحرف بالانسان الى مساوئ العزلة عن المجتمع ، والوجه الايجابي الذى يعكسه النص التالي ، لانه يساعد على تفتق الذهن وصفاء القريحة . قال الجاحظ :

" والعرب كانوا سكان فياف وتربية العراء . اذهان حداد ونفوس مفكرة ... فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة ... بعد الاستدلال بالآفاق وتعرف الانواء ، والاعتبار بكل محسوس ، بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل امنية " (2)

وقد انكر الجاحظ على الاعراب زعمهم ان للغيلان (3) قدرة على اعتراض السفار او قدرة على تغيير العقل . قال الجاحظ :

" انهم لم يسلطوا على الصحيح العقل ، ولو كان ذلك اليهم لبدأوا بعلي ابن ابي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب وبابي بكر وعمر في زمانهم ، وبغيلان والحسن في دهرهما ، وبواصل وعمرو في ايامهما " (4)

---

(1) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٦ : ٢٤٩ - ٢٥١ .
(2) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧٠ .
(3) اللفظ مشتق من الجان اذا تغول اى تلون وتشكل ليفتن السفار ، انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ١٥٨ .
(4) المصدر نفسه ، ٦ : ١٦٠ .

وقد جمع الجاحظ سائر عيوب عرب الجاهلية لتعريف الناس "تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه "(١) فقال :

"... وهم مع ما حكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البيان وسعة المعرفة وجودة الرأي وشدة الانفة ، يعبدون الحجارة ويحلفون بها ويتحامون كسرها وتهجينها وينكسون لها ويدعونها آلهة ويخاطبونها... ثم مع ذلك ربما رموا بها واتخذوا سواها ... ويقولون : ايما رجل قتل فلم يطلب وليه بدمه خلق من دماغه طير يسمى هامة ، فلا يزال يزقو على قبره وينعي عليه ، عجز وليه ، حتى يبعث ؛ ... ثم كانوا يستسقون للميت ... وكانوا اذا اجدبت بلادهم فارادوا الاستمطار اخذوا بعيرا اورق فشدوا في ذنبه العشر او السلع وصعدوه في الجبل واشعلوا في ذنبه النار ودعوا وتضرعوا ، ويزعمون انهم ان لم يفعلوا ذلك لم يستجب الله منهم ... وكان الرجل منهم اذا غزا عقد خيطا في ساق شجرة ، فاذا رجع ورآه منحلا فقد خانته قعيدته بزعمهم ، وان رجع ووجده بحاله فقد حفظت نفسها له . قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم ان همّت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرّتمْ ؟

والرتمة اسم الخيط بعينه . وكانوا يقولون : اذا احب الرجل المرأة واحبته فان لم يشق عليها برقعها وتشق عليه رداءه فسد حبهما ، وان فعلا ذلك دام حبهما ، قال عبد بني الحسحاس :

وكم قد شققنا من رداء ومئزر ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شق برد شق بالبرد مثله دواليك حتى كلنا غير لابس

هذا مع ايمانهم بالعدوى والجن وتلوّن الغيلان ... ومع مذهبهم في الحامي والبحيرة والوصيلة والسائبة مع امور كثيرة لا يحتاج الى ذكرها ؛ وانما اردنا من ذلك ان يعرف الناس تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه . فاذا صار الى التكذيب والتصديق والايمان والكفر صار الى غير الذي كان عليه من التمييز ". (٢)

---

(١) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح ، " المجلة الآسيوية ، ص ٩٤ - ٩٧ .
(٢) المصدر نفسه .

ونختم حديثنا عن رأى الجاحظ في عرب الجاهلية بايراد القطعة التاليـــة حول عادة بعض العرب في نسبة عار الفرد الى المجموع :

" والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلة قد اتى قبيحا الزمت ذلك القبيلة كلها ،كما تمدح القبيلة بفعل جميل وان لم يكن ذلك الا بواحد منهـــا ، فتهجو قريشا بالسخينة وعبد القيس بالتمر وذلك عام في الحيين جميعـــا وهما من صالح الاغذية والاقوات ، كما تهجو بأكل الكلاب والناس وان كان ذلك من رجل واحد ."(١)

والجاحظ ، كما يبدو من النص اعلاه لا يروقه اطلاق التعميمات المبنية علـــى حوادث جزئية وكأنما يدعو ان تكون العرب اكثر استقراء لتفاصيل الواقع الذى تمدحه او تهجوه ، قبل اطلاق الحكم التعميمي عليه .

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢١٥ .

٢- مآخذه على عرب صدر الاسلام

اخذ الجاحظ على عرب صدر الاسلام الذين عادوا النبي وآذوه ، واشار الجاحظ الى واقع عداوتهم للنبي مستعينا بنص الكلمة التي قالها عبدالله بن عبدالله بن الاهتم لعمر بن عبدالعزيز. قال :

" اما بعد فان الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ،آمنا لمعصيتهم ،والناس يومئذ في المنازل والرأى مختلفون ،والعرب بشرّ تلك المنازل،اهل الوبر واهل المدر ،تحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشها : ميّتهم في النار وحيّهم اعمى . مع ما لا يحصى من المرغوب عنه ،والمزهود فيه . فلما اراد الله ان ينشر فيهم رحمته ،ويسبغ عليهم نعمته ،بعث اليهم رسولا منهم عزيزا عليه ما عنتوا ، حريصا عليهم ،بالمؤمنين رؤوفا رحيما ، فلم يمنعهم ذلك من ان جرّحوه في جسمه ولقّبوه في اسمه ،ومعه كتاب من الله ناطق ،وبرهان من الله صادق. . . ."(١)

ويكشف الجاحظ عن ملامح اخرى لتلك العداوة بعد ان تحداهم النبي بمعارضة القرآن . قال :

" وبعد ،فقد هجوه من كل جانب. . . وحاجّوه في المواقف ، وخاصموه في المواسم ،وبادوه العداوة ،وناصبوه الحرب. . . وهم اثبت الناس حقدا وابعدهم مطلبا واذكرهم لخير او لشر. . . وهل يذعن الاعراب واصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ،والتوقيف على النقص، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم وهم اشد خلق الله عز وجل انفة ،وافرط حمية ،واطلبه بطائلة. . . ."(٢)

اما اصحاب التحدي القرآني الذين" بذلوا النفوس والاموال وخرجوا من ديارهم في اطفاء امره وفي توهين ما جاء به"،(٣) فهم لم يخرجوا عن كونهم جماعة " الشعراء والخطباء

---

(١) الجاحظ ، البيان ، ٢ :١١٨ .
(٢) الجاحظ ،" رسالة في حجج النبوة ،" رسائل الجاحظ ،٣ : ٢٧٤-٢٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

والبلغاء والدهاة والحلماء واصحاب الرأي والمكيدة والتجارب والنظر في العاقبة."(١)
ولكن جميع هؤلاء ،من قريش خاصة والعرب عامة ،عجزوا عن معارضته فكان العجز فيهم فاشيا ظاهرا (٢) مع "ان الكلام كان سيد عملهم ،وتحبيره اهون من القتال ومن اخراج المال."(٣) ومع ذلك ، فانهم استمروا في الطعن في القرآن ،دون جدوى" مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلمتهم ،"(٤) وفي هذا مأخذ واضح عليهم. قال:

" ولم يقل : ان القوم قد تركوا مسألته في القرآن والطعن فيه . . .
ويدّلك على ذلك قوله عز وجل : (وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة) . وقوله عز ذكره : (واذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدّله) ، وقوله تعالى جل ذكره : (وقال الذين كفروا ،ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون)."(٥)

وقد ردّ الجاحظ سوء تصرفهم تارة الى الانفة والحمية والكبر وطورا الى الحسد(٦).
اما الكبر ، فقد افرد الجاحظ رسالة في ذمّه ،علل فيها مساوئ الكبر الذي رآه مفتاح المعاصي وشر العيوب. قال :

" والكبر من جميع الناس قبيح ، ومن كل العباد مسخوط ،الا انه عند الناس من عظماء الاعراب ،واشباه الاعراب اوجد ،وهولهم اسرع ،لجفائهم وبعدهم من الجماعة ،ولقلة مخالطتهم لاهل العفة والرعة ،والادب والصنعة . . .
وما ظنك بشيء العجب شقيقه والبذخ صديقه ، والنفج أليفه ،والصلف عقيده . . . وشر العيوب ما كان مضمّنا بعيوب ،وشر الذنوب ما كان علة لذنوب. والكبر اول ذنب كان في السماوات والارض، واعظم جرم كان من الجن والانس واشهر تعصب كان في الثقلين . عنه لج ابليس في الطغيان وعتا على رب العالمين وخطّأ ربه في التدبير ،ومن اجله اخرج من الجنة وقيل له : (ما يكون لك ان تتكبر فيها) . . وعن

---

(١) المصدر نفسه ،ص ٢٧٣ .
(٢) المصدر نفسه ،ص ٢٧٦ .
(٣) المصدر نفسه ،ص ٢٧٦ و٢٧٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ٢٧٧ .
(٥) المصدر نفسه ، ٢٧٦ والآيات هي على التوالي : الفرقان : ٣٢ ويونس : ١٥ ، والفرقان ٤ .
(٦) كما سنذكر في القسم المتعلق بمآخذ الجاحظ على بني امية .

معصيته اخرج آدم من الجنة ،وشهر في كل افق وامة . ومن اجله نصب العداوة لذريته وتفرغ من كل شيء الا من اهلاك نسله . . . والكبر هو الذي زين لابليس ترك السجود ،ووهمه شرف الانفة . . وحبب اليه المخالفة وآنسه بالوحدة والوحشة ،وهون عليه سخط الرب . . وزين له قول الزور ،وزهده في جوار الملائكة ،وجمع له خلال السوء ،ونظم له خلال الشر ، لانه حسد والحسد ظلم ،وكذب والكذب ذل ،وخدع ، والخديعة لؤم . . . والكبر معنى ينتظم به جماع الشر ،والتواضع معنى ينتظم به جماع الخير . . . ولو كان الكبر لا يعترى الا الشريف والجميل ، او الجواد ،او الوفي او الصدوق ،كان اهون لامره . . . ولكنا نجده في السفلة كما نجده في العلية ،ونجده في القبيح كما نجده في الحسن ، وفي الدميم كما نجده في الجميل . . . وفي الذمي ذي الجزية . . كما نجده في قابض جزيته . . . ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية اظهر منه في دهر الاسلام ، ولما كان في العبد افشى منه في الحر ، ولما كان في السند اعم منه في الروم والفرس". (١)

وباختصار ، فان النبي قد لقي ممن عاصر دعوته ، اشد المكروه وقد استوى في ايذائه من جمعته القربى به ومن لم تجمعه ايضا . قال :

" وليس بطن من بطون قريش الا وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم منه اعظم المكروه ، وان كانوا في ذلك على طبقات : من مجتهد لا يبقي ولا يفتر ولا يسأم ،ومن رجل مائل معهم بضلعه مبد معهم لضره -وان كان لا يبلغ غلو الآخر وتصميمه وقلة اغفاله . ولقد كانت خزاعة وثقيف على بعد انسابها وارحامها ،احسن تقية من قريش في اظهار العداوة والارصاد بالمكروه والثبات على البغي . . . على انهم قد اجلبوا وطعنوا وكفروا وكذبوا . . . ولقد كان ابولهب على قربه وقرابته ،شبيها بابي جهل في الغلظة والقسوة والجفاء وكثرة التدرى وقلة السآمة . . . وكان بني عبد مناف على قربهم وقرابتهم ، اشد الخلق على رسول الله ... ."(٢)

---

(١) الجاحظ ،" كتاب في النبل والتنبل وذم الكبر" رسائل الجاحظ ،ج ٤ : ١٧٥ - ١٨٢ . والملاحظ ان الجاحظ في انتقاده العرب الذين عاصروا النبي ،بنى انتقاده على اظهار الصفات وتقصي الاسباب التي ادت بهم الى مخاصمة النبي ، منتهيا الى انها ترجع الى خلق الكبر.

(٢) الجاحظ ،كتاب العثمانية ،تحقيق عبد السلام هارون ، (مصر : دار الكتاب العربي ، ١٩٥٥) ص ١٠١ - ١٠٣ .

٣- مآخذ الجاحظ على بني امية :

اذا كانت تعاليم الاسلام دافعا اساسيا جعل الجاحظ ينطلق منها للتعبير عن جملة مآخذه على العرب ، فان العامل الديني لم يكن العامل الاوحد الذى صدرت عنه تلك المآخذ ، اذ كان للسياسة نصيب في هذا الشأن ايضا . فارتباط الجاحظ باهل الحكم العباسي جعله اشبه ما يكون بالناطق الرسمي عن معتقدات ذلك الحكم ، والمدافع الاول عنها ازاء خصومها السياسيين ولا سيما بني امية .

وقد انطلق الجاحظ من الجاهلية في انتقاده لبني امية ،قائلا ان قيام بني هاشم بالايلاف ،وتأسيسهم حلف الفضول ،عدا عن استئثارهم باشرف خصال قريش في الجاهلية ،كاللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه (1) دون بني عبد شمس ، لما يفتح باب المآخذ الدينية بشكل قوى على بني امية ، ويتابع قائلا :

" . . . وصنع امية في الجاهلية شيئا لم يصنعه احد من العرب ،زوّج ابنه ابا عمرو امرأته في حياته منه ،فاولدها ابا معيط بن ابي عمرو بن امية. والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فاما ان يتزوجها في حياة الاب ويبنى عليها وهو يراه فانه شيء لم يكن قط . . ."(2)

ويؤكد الجاحظ تهافت بني امية الديني من خلال ذكره لحوادث معينة في صدر الاسلام او خلال الحكم الاموى . اما في صدر الاسلام ، فان الجاحظ ينكر اى تفوق لبني امية على بني هاشم فيما يتعلق بنبوة محمد لان الحسد والبغضة كانا يمنعان بني امية من نصرة النبي . قال :

" . . . قال الله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم احدا من بني عبد شمس ،وكانت عشيرته الاقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . . . وقد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا . وان هاشما والمطلب كانا يدا واحدة وان عبد شمس ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان مما ابطأ ببني نوفل عن الاسلام ابطاء اخوتهم من بني عبد شمس ،وكان مما حث بني المطلب على الاسلام فضل

---

(1) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٦٧ .

(2) المصدر نفسه ، ص ٧٥

محبتهم لبني هاشم. لان امر النبي صلى الله عليه وسلّم كان بيّنا وانما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فمن لم يكن فيه هذه العلة ، لم يكن له دون الاسلام مانع. . . "(١)

ويعود الجاحظ ثانية الى تقصّي باعث خلق الحسد الذى ادّى الى امتناع بني امية وغيرهم عن نصرة النبي ،فيردّه الى عامل الكبر :

" والمذكورون من الناس بالكبر ،ثم من قريش : بنو مخزوم وبنو امية. ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدس خاصة. . . فاما بنو مخزوم، وبنو امية، وبنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدس، فأبطرهم ما وجدوا لانفسهم من الفضيلة . ولو كان في قوى عقولهم ودياناتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم ، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم..." (٢)

ولم يأخذ الجاحظ على بني امية امتناعهم عن نصرة الاسلام وقت البعثة فحسب وانما اخذ عليهم محاربتهم آل البيت النبوى خلال الفترات التاريخية اللاحقة :

". . . والعباس هو الذى منع الناس من قتل ابي سفيان وجاء به رديفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود . . . فكان جزاء بني هاشم من بنيه ان حاربوا عليّا ، وسمّوا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الاقتاب حواسر وكشفوا عن عورة عليّ بن الحسين حين اشكل عليهم بلوغه كما يصنع بذراري المشركين اذا دخلت دورهم عنوة . . . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطفّ تسعة من صلب عليّ وسبعة من صلب عقيل. . . واكلت هند كبد حمزة ،فمنهم آكلة الاكباد ، ومنهم كهف النفاق ،ومنهم من نقر بين ثنيّتي الحسين بالقضيب ،ومنهم القاتل يوم الحرّة : عون بن عبدالله بن جعفر ،ويوم الطفّ : ابا بكر بن عبدالله بن جعفر . . . قال ابوعثمان :". . . وسممتم ابا هاشم عبدالله بن محمد بن علي بن ابي طالب ،ونبشتم زيدا وصلبتموه. . . وقتلتم الامام جعفر الصادق ،وقتلتم يحيى بن زيد وسميتم قاتله ثائر مروان وناصر الدين . . . . "(٣)

---

(١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ١١٢-١١٤ . والآية المذكورة هي من سورة الشعراء : ٢١٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٧٠ - ٧٢

(٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٧٨ - ٧٩ .

ويعلل الجاحظ سوء تصرف عمّال بني امية بانه ينطلق من كفر قادتهم المدّعين للامامة او الخلافة عليهم لتحررهم من احكام الكتاب والسّنّة :

" . . . فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى ، وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذى سمّوه عام الجماعة — وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحوّلت فيه الامامة ملكا كسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ، ولم يَعْدُ ذلك اجمع الضلال والفسق . ثم مازالت معاصيه من جنس ما حكينا . . . حتى ردّ قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفا ، وجحد حكمه جحدا ظاهرا ، في ولد الفراش وما يجب للعاهر ، مع اجماع الامة ان سميّة لم تكن لابي سفيان فراشا ، وانه انما كان بها عاهرا ، فخرج بذلك من حكم الفجّار الى حكم الكفّار ."(١)

اذا فتصرّف زياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد ازاء شعائر الله وآل بيت رسول الله ، ليسا بشيء بالنظر الى الكفرة الاولى التي وسمت زيادا ابنا شرعيا لابي سفيان فاعطته الضوء الاخضر لتلك التصرفات :

" . . . فهذه اول كفرة كانت في الامة . ثم لم تكن الا فيمن يدّعي امامتها والخلافة عليها . . . ثم الذى كان من يزيد ابنه ومن عمّاله واهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمي الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام . . . فاحسبوا قتله (٢) ليس بكفر ، واباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة ، كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ؟ . . . وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لاخوته وخاصته : دعوني اقتله (٣) فانه بقية هذا النسل ، فاحسم به هذا القرن ، واميت به هذا الداء ، واقطع به هذه المادة ."(٤)

---

(١) الجاحظ ، " رسالة في النابتة ، " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٠-١١ . وانظر في مثالب معاوية ، الفقرة ١٨ و٦٥ من " رسالة في الحكمين . . " ، مجلة المشرق ، ولاحظ تراجع الجاحظ عن تكفير معاوية الى تفسيقه وتأثيمه في الفقرة ٧١ و٧٣ من المجلة المذكورة .

(٢) اى الحسين .

(٣) اى علي بن الحسين .

(٤) الجاحظ ، رسالة في النابتة ، " رسائل الجاحظ ، ٢ : ١٢-١٣

وهذا النص لا يدع مجالا للشك بان الجاحظ يوظف معلوماته الدينية في سبيل الانتقاص من قدر خصوم العباسيين . واذا كان في عصر معاوية قدر من حرية الكلمة ، فان ذلك القدر انتفى بمجيء عبدالملك بن مروان الذى انهى عصر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية :

" . . . فعبد الملك بن مروان ابو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الاموية بهم ، اعرق الناس في الكفر . . . وحسبك من جهله تبديل شرائع الدين والاسلام وهو يريد ان يلي اموراصحابها بذلك الدين بعينه! وحسبك من جهله انه رأى من ابلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة ان يلعن عليّ بن ابي طالب على منابره . . . حتى قام عبد الملك بن مروان ،وابنه الوليد ،وعاملهما الحجاج بن يوسف ،ومولاه يزيد بن ابي مسلم ،فاعادوا على البيت بالهدم ،وعلى حرم المدينة بالغزو ،فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرمة ، وحوّلوا قبلة واسط ،واخّروا صلاة الجمعة الى مغيربان الشمس . . . ومما يدل على ان القوم لم يكونوا الا في طريق التمرد على الله عزّ وجلّ ، والاستخفاف بالدين ، والتهاون بالمسلمين ، والابتذال لاهل الحق ،اكلهم امرائهم الطعام ، وشربهم الشراب ، على منابرهم ايام جمعهم وجموعهم . . وذلك ان كان كفرا كله . . . ."(١)

ويرى الجاحظ ان عراقة عبد الملك في الكفر لم تكن لكفره بالشرائع الدينية وشعائرها فقط ،وانما لكفره بسلفه وأئمته الامويين الذين اوصلوه الحكم :

" . . . وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلا : اني والله ما انا بالخليفة المستضعف ،ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهؤلاء سلفه وأئمته ،وبشفعتهم قام ذلك المقام ،وبتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة . ولولا القادة المتقدمة والاجناد المجندة والصنائع القائمة لكان ابعد خلق الله من ذلك المقام واقربهم الى الهلكة ان رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ،وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه وعداوة لاهله . . ."(٢)

---

(١) الجاحظ ، "كتاب فضل هاشم على عبد شمس" ،رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،ص ٨٠ و٩٢" ورسالة في النابتة" رسائل الجاحظ ،ج ٢ : ١٥-١٨

(٢) الجاحظ ،كتاب فضل هاشم على عبد شمس ،" رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،ص ٩٢ .

هكذا نكون قد بينّا ان الجاحظ في مآخذه على بني امية كان يضرب على وتر العاطفة الدينية لا ايمانا بها فحسب ،وانما تزكية لمصلحة العباسيين السياسية ايضا . وبعد ، فان هؤلاء الامويين لم يستحقوا الخلافة بالقرابة او السابقة الى الجهاد . اذا لم يبق الا حق قرشيتهم "لان رواية الراوى ، الائمة من قريش واقعة على كل قريش "(١) فيبقى المأخذ الاهم للجاحظ على بني امية مأخذا دينيا - سياسيا ، لان بني امية اخفقوا في تحقيق حديث النبي" الائمة من قريش " ، لسبب اوضحه الجاحظ حين قال " ان الرياسة في الدين لا تستحق بغير الدين والعمل الصالح "(٢) ،ولوان الواقع التاريخي لبني امية يناقض هذا الحديث حين اثبتوا ان الرياسة في الدين تمت لهم بالغصب القيصرى والملك الكسروى ،اى لاسباب القهر والجبرية والغلبة التي ليست من الاسلام في شيء". قال الجاحظ في ملك عبد الملك بن مروان :

". . . ولولا القادة المتقدمة والاجناد المجندة والصنائع القائمة لكان ابعد خلق الله من ذلك المقام ،واقربهم الى الهلكة ،ان رام ذلك الشرف. . . "(٣)

---

(١) المصدر نفسه صفحة ٧٧ ونص الحديث " الائمة من قريش " في مسند احمد ابن حنبل ،الباب الثالث ص ١٢٩ و١٨٣ والرابع ص ٤٢١ . عن المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ،(مادة أم) .

(٢) الجاحظ ،كتاب العثمانية ، ص ٢١١ .

(٣) الجاحظ ،" كتاب " فضل هاشم على عبد شمس،" رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٩٢ .

٤ ـ مآخذه على عرب الدولة العباسية

تناول الجاحظ في مآخذه على معاصريه من عرب المجتمع العباسي ،عامتهم وخاصتهم . اما عامة عصره ،فقد اخذ عليها عدم طاعتها للخاصة وسلوكها المضطرب ازاء مسألة الامامة ونشاطها الاعلامي ايضا .

وفيما يتعلق بعدم طاعة العوام للخواص ،فقد ردّه الجاحظ الى علل واسباب كالعلل التي تعرض لجوارح الانسان . قال :

"ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الانسان من الانسان . . . وكما ان الجوارح لا تعرف قصد النفس،ولا تروى في الامور ولم يخرجها ذلك من الطاعة للعزم ، فكذلك العامة ،لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة ، ولا تروى معها . . . والجوارح والعوام وان كانت مسخّرة ومدبرة. فقد تمتنع لعلل تدخلها ،وامور تصرفها ،واسباب تنقضها ، كاليد يعرض لها الفالج واللسان يعتريه الخرس ،فلا تقدر النفس على تسديدهما وتقويتهما ،ولو اشتد عزمها . . . وكذلك العامة عند نفورها وتهيّجها ، وغلبة الهوى والسخف عليها ،وان حسن تدبير الخاصة ،وتعهّد الساسة . غير ان معصية الجارحة ايسر ضررا ،واهون امرا ،لان العامة اذا انتكثت للخاصة وتنكّرت للقادة ،وتشزّنت على الراضة ،كان البوار الذى لا حيلة له ،والفناء الذى لا بقاء معه ."(١)

---

(١) الجاحظ ،" مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٦ - ٣٧ . والملاحظ في انتقاد الجاحظ لهذه الشريحة الهامة من المجتمع العباسي المعاصر له ، تأثر الجاحظ بالفكر اليوناني حين شبّه الطبقات الاجتماعية بقوى انسانية كما فعل افلاطون مع فارق دقيق هو ان الجاحظ شبّه الطبقات الاجتماعية بجوارح الانسان في حين شبّهها افلاطون بالقوى النفسية" كالقوة المفكرة والقوة الغضبية والشهوية . انظر : جمهورية افلاطون ،بالانكليزية :

Plato, The Republic of Plato, translated by Francis Macdonald, (Oxford : Oxford University Press) pp. 119, 129, 139.

اما سلوك العامة المضطرب ازاء مسألة الامامة فمفاده ان العوام المعاصرين للجاحظ امّا انهم افرطوا في التعلق بامام دون غيره او انهم لم يعوا ضرورة اقامة الامام العادل كما سنرى . قال الجاحظ في مأخذ الافراط الذى يعكس عدم اعمال الفكر في مسائل الدين ، استثقالا للتمثيل وبغضا للتحصيل واستمرارا في التقليد :

" . . . ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس بامر الدين وان شأنهم تعظيم الرجال والاستسلام للمنشأ والذهاب مع العصبية والهوى والرضى بالسابق الى القلوب واستثقال التمثيل وبغض التحصيل ،ما نجد من انقياد اكثر البصريين وسوادهم لتقديم عثمان بن عفان ومن انقياد اكثر الكوفيين لتقديم عليّ بن ابي طالب ومن انقياد اكثر الشاميين لديـن بني امية وتعظيم عثمان وحب بني مروان ، حتى غلط لذلك قوم فزعموا ان ذلك من قبل الطالع . . . ومن عمل التربة . . . وليس ذلك ـ اكرمك الله ـ الا من قبيل تقليد السلف وحب الرجال وما وقع في القلوب وهيّجته المحبة ،لان تقليد الآباء هو الذى ارتهنهم وحب الرجال هو الـذى اعماهم واصمّهم . . . ولو كان ذلك من قبل الطالع او التربة ،لما حسن الامر والنهي ،ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب ،ولما كان لارسال الرسل معنى . . . فصحّ ان دين الناس بالتقليد لا بالنظر ،وليس التقليد الى الحق باسرع منه الى الباطل ."(١)

ويبدو ان الجاحظ رد اخطاء العامة الى دائرة الاختيار الانساني والهوى الشخصي فقط دون ان يكون للعوامل المادية اى اثر حتمي على خطأ الانسان . واذا كان افراط اهل الكوفة والبصرة والشام في التعلق بامام دون غيره مذمّة ،فان في تقصير الصنف الآخر من العوام في ادراك ضرورة اقامة الامام مذمّة ايضا الى درجة ان الجاحظ عدّ من يجهل " معنى الامامة وضرورة الخلافة الراشدة ، (٢) بانه ينتمي الى فئة العامة الضالة ، وذلك " لاستسلامها لدواعي الهوى وتحررها من رقابة الدين وانطلاقها وراء كل ريـح تهب وناشئة تنجم ،(٣) فباتت هذه الفئة لا تفصل بين فضل وجود الامامة ونقص عدمها .

---

(١) الجاحظ ،" الاخبار وكيف تصح " ،المجلة الآسيوية ،ص ١٠١ - ١٠٢

(٢) الجاحظ ،" مقالة العثمانية ،" رسائل الجاحظ ،٤ : ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وهذا الاتجاه النقدى غير بعيد عن حديث للرسول " من مات بغير امام مات ميتة جاهلية ."(١)

اما مأخذ الجاحظ الاخير على عوام عصره فهو قائم على مابدر منها من نشاط اعلامي بات يخشى منه على تدبير الخاصة من اهل المجتمع العباسي . ولذلك نصب الجاحظ نفسه لمعالجة هذا الصنف من العوام الذين " لولا ان لهم متكلمين ، وقصاصا متفقهين . . . لم يلحقوا بالخاصة ،ولا بأهل المعرفة التامة . ولكنا كنا نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم ."(٢) لقد خشي الجاحظ منهم لان نشاطهم الكلامي اصبح يؤلف خطرا قد يلوّن الواجهة الفكرية السياسية لمبادئ المعتزلة الثابتة . لذلك السبب ،خطّ الجاحظ رسالته" في نفي التشبيه" ووجهها الى القاضي أبي الوليد محمد بن ابي دؤاد (٣) يعبر فيها عن ثورته على كيفية سماح المعتزلة باختراق صفوفهم على يد سفلة القوم من رؤساء العوام " . . . الذين اشعلوا فتنة واضرموا نارا "(٤) حين اندسّوا في صفوف المعتزلة واصبحوا بمناصبهم المستحدثة خطرا على مبادئ الخاصة . قال الجاحظ :

" . . . فكيف صاروا في باطلهم ايام قدرتهم اقوى منا في حقنا ايام قدرتنا ؟ "(٥)

---

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ٤ : ٩٦ ، عن المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى .

(٢) الجاحظ ،"رسالة في نفي التشبيه ،" رسائل الجاحظ ،١ : ٢٨٥ .

(٣) الرسالة موجهة له كما ذكرنا ، لا لوالده احمد بن ابي دؤاد لان الاخير-صاحب القول بخلق القرآن ايام المعتصم والواثق - كان اكثر ليونة مع رؤساء العامة . فاستغل الجاحظ حمية الشباب التي في ابنه ، كي يستطيع دفع مصالح المعتزلة التي واجهها بلاء العوام والمشبّهة . انظر : الجاحظ ،"كتاب صناعة الكلام ،" رسائل الجاحظ ،٤ : ٢٤٣ .

(٤) الجاحظ ،"مقالة العثمانية ،" رسائل الجاحظ ،٤ : ٤١

(٥) الجاحظ ،"رسالة في نفي التشبيه" ،المصدر نفسه ،١ : ٢٨٧ .

والخطر ثابت لانه " على العلماء ان يخافوا دول العلم كما يخاف الملوك دول الملك ،"(١) ويميت الداء ان للعوام رؤساء . قال الجاحظ :

"... والعوام - ابقاك الله - اذا كانت نشرا ،فامرها ايسر ومدة هيجها اقصر . فاذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبّر ،وامام مقلد ، فعند ذلك ينقطع المطمع ،ويموت الحق ،ويقتل المحق . . . . (٢)

وقد رأى الجاحظ ان في منازعة العوام للخاصة ، الكلام في " القدر والاستطاعة والتكليف" بلاء لا يخفى على احد ،خصوصا انه معني بتوجيه رجال الدولة العباسية ،فلم يمكن التغاضي عن البلاء المتمثل في رؤية كل انسان من المسلمين نفسه متكلما (٣) . قال :

"... ولو نطق عالم بحرف في القدر حتى يذكر العلم والمشيئة ،والتكليف والاستطاعة ،وهل خلق الله تعالى الكفر وقدّره او لم يخلقه ولم يقدره ، لم يبق حمّال افتر ،ولا بطّال غث ،ولا خامل غفل ،ولا غبي كهام ،ولا جاهل سفيه ،الا وقف عليه ولا حاه وصوّبه وخطّأه . . . . (٤)

ولذلك صب الجاحظ غضبه على عامة عصره حتى يخال القارىء ان الجاحظ يقصد عرب الجاهلية لا عرب المجتمع العباسي وذلك لاشتراكهم في العيوب الجاهلية . قال :

" وضرب آخر من الناس : همج هامج ورعاع منتشر ،لا نظام لهم ، ولا اختبار (٥) عندهم ،اعراب اجلاف ،واشباه الاعراب ، يفترقون من

---

(١) الجاحظ ،" كتاب خلق القرآن ،" المصدر نفسه ،ج ٣ : ٣٠٠ .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه ،"المصدر نفسه ،ج ١ : ٢٨٤- ٢٨٥ .

(٣) الجاحظ ،" رسالة الرد على النصارى" ،رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ .

(٤) الجاحظ ،" مقالة العثمانية ،" رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤٠-٤١ . والجدير بالذكر ان الجاحظ لم يكن يخشى على القاضي ابن ابي دؤاد من العامة فحسب وانما خشي ايضا على الخليفة المعتصم الذى اخذت مجالسه يغشاها اولئك المضلّون من العوام ،خاصة وان المعتصم في نظر الجاحظ لم يكن يتمتع بالقوة التي كانت للمأمون في دفاعه عن مصالح المعتزلة وحماية فكرها الديني من هجمة العامة عليها .

(٥) وردت بلفظ " اختيار" ايضا . انظر" كتاب استحقاق الامامة" ،رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢١٢ .

> حيث يجتمعون ،ويجتمعون من حيث يفترقون ،لا تدفع صولتهم اذا هاجوا ولا يؤمن هيجانهم اذا سكنوا . ان اخصبوا طغوا في البلاد وان اجدبوا آثروا العناد .هم موكّلون ببغض القادة ،واهل الثراء والنعمة ، يتمنون النكبة ،ويشمتون بالعثرة ،ويسرّون بالجولة ،ويترقبون الدائرة . وهم كما وصفوا ،الطغام والسفلة وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه في دعائه :" نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يُملكوا ، واذا افترقوا لم يعرفوا . " فهؤلاء ،هؤلاء !" (١)

اى ان هؤلاء الذين ذكرهم علي بن ابي طالب وتوجّس منهم ،هم الاعراب انفسهم والعوام الضالون في عصر الجاحظ . وبالتحديد هم ذلك الصنف المتفيقه المدعو " بالنابتة والمشبهة " (٢) الذى غزا مجالس المعتزلة بسلطانه الكلامي المستحدث ، بعد ان رفض القول بخلق القرآن ،ولذلك فهم كما قال الجاحظ " دائبون في التألم من المعتزلة ، عددهم كثير ونُصْبهم شديد ،والعوام معهم والحشو يطيعهم ."(٣)

ذكرنا مآخذ الجاحظ في عامة عصره ،اما مآخذه في خاصة عصره فيعكسها قوله التالي الذى يحصر مشاكل المجتمع العباسي في العلاقة غير المتحققة بين العامة والخاصة وبالتحديد في تدبير الخاصة وطاعة العامة لها . فاذا كانت العامة

---

(١) انظر الجاحظ ،" مقالة الزيدية والرافضة" ،رسائل الجاحظ ،٤ : ٣١٤-٣١٥ . وقد تكرر النص بصيغ مماثلة في " كتاب استحقاق الامامة" ، المصدر نفسه ، ٤ : ٢١٢ و" رسالة في نفي التشبيه" المصدر نفسه ،١ : ٢٨٣ .

(٢) للجاحظ رسالة خاصة في النابتة ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ :٣ - ٢٥ ، وهي الفئة صاحبة المأخذه اعلاه التي قرنها الجاحظ بالعوام (المصدر المذكور ص ٢٠) وبالمبتدعة (ص ١٢ وص ١٤) . وبالرافضة (ص ١٨) . وقد كتب الجاحظ هذه الرسالة في هذه الفئة التي كانت تضاد الفكر المعتزلي والسياسة العباسية وتساند الامويين والحنابلة مستخدمة في ذلك كله" الكلام" . راجع:
Charles Pellat, The life and works of Jāḥiẓ, translated by D.M. Hawke, (University of California press, 1969), p. 18.

(٣) الجاحظ ،" كتاب في خلق القرآن" ،رسائل الجاحظ ،٣ : ٣٠٠ .

ـ كما تقدم ـ لا تطيع الخاصة ، فان المشكلة مضاعفة لان الخاصة ، وهي العلاج الباقي كما يرى الجاحظ ، بحاجة الى تصويب بعد ان اتخمت بالاسباب وافتقرت الى التدبير. قال الجاحظ :

" وصلاح الدنيا وتمام النعمة في تدبير الخاصة وطاعة العامة . كما ان كمال المنفعة وتمام درك الحاجة بصواب قصد النفس. . . فالخاصة تحتاج الى العامة كحاجة العامة الى الخاصة ، وكذلك القلب والجارحة ، وانما هم جند للدفع ، وسلاح للقطع . . . وليس في الأعمال اقل من الاختيار ولا في الاختيار اقل من الصواب. فلباب كل عمل اختياره ، وصفوة كل اختيار صوابه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، واكثر الناس اختيارا اكثرهم صوابا ، واكثرهم اسبابا موجبة اقلهم اختيارا ، واقلهم اختيارا اقلهم صوابا . " (١)

ولعل الجاحظ يقصد بكثرة الاسباب الداء الذى غزا العرب التي لم يكن لها من الاسباب ما توفر للعباسيين الذين ابطرتهم اسباب الملكية والترف وتعرضوا لمختلف مظاهر الغزو الحضارى والثقافي الفارسي . ولقد اشار الجاحظ الى ذلك حين قال :

" . . . دولة بني العباس عجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية اعرابية . ... " (٢)

فهذا القول قد يكون اطلقه الجاحظ بسبب ملاحظته انتشار المظاهر والمراسيم الفارسية في البلاط والمجتمع العباسي ، كانعزال الخليفة عن الرعية ووجود الجلاد وغيرهما من المظاهر التي تؤكد سلطة الخليفة واستبداده . وكأن الجاحظ لم يملك الا التذمّر من هذه المظاهر التي تمثل تحديا لمجتمع النبوة والخلافة الراشدة . قال الجاحظ :

" قد يسخّر الله الملك لقوم باسباب قديمة واسباب حديثة ، فلا يزال الملك مقصورا عليهم ، ما دامت تلك الاسباب قائمة ، اذ كانوا للملك مسخّرين ،

---

(١) الجاحظ ، " مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٧-٣٨ .

(٢) الجاحظ ، "البيان والتبيين ، " ٣ : ٣٦٦ .

وكان الناس لهم مسخرين بالجبرية والنخوة ،والفظاظة والقسوة ، ولطول الاحتجاب والاستتار ، وسوء اللقاء والتضييع ."(١)

فالجاحظ يأخذ على العباسيين استتارهم عن الناس - وان لم يجرؤ على تسميتهم - الا بالاشارة على انهم قوم سخّر الله لهم الملك باسباب قديمة ،هي نبوة محمد ، وباسباب حديثة هي التي عددها اعلاه .

ويظهر انزعاج الجاحظ الضمني من ظاهرة الاستتار والحجاب لدى الخلفاء العباسيين من خلال تخصيصه رسالة كاملة في هذا الموضوع ،دار معظمها في خبر من عوتب على احتجابه . وقد لمّح الجاحظ الى محاولته اصلاح هذه الظاهرة عند الملوك حين قال :" ان الملوك اذا اتت ما يجل عن المعاتبة ضربت لها الامثال وعرّض لها بالحديث . . . وان السعيد من وعظ بغيره"(٢) فالجاحظ مدرك للهوة الفاصلة بين مثالية عهد النبوة وبين عجمية عهد بني العباس ومع هذا فهو لم يأل جهدا في التوجيه والاصلاح فاستهل رسالته في الحجاب بما ورد في الاثر في النهي عنه :

". . . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :" ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بامانته وامره : اذا عدل في حكمه ،ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب الله في القريب والبعيد ."... ويوصي عمر عمّاله فيقول : اياكم والحجاب ،واظهروا امركم بالبَراز. . . وكتب عمر رضوان الله عليه الى معاوية وهو عامله على الشام :" اياك والاحتجاب دون الناس،وَأْذن للضعيف وادنِه حتى ينبسط لسانه ويجترئ قلبه . . . ."(٣)

وبايراد رأي الجاحظ الناقد لسلوك الخاصة والعامة من معاصريه من عرب المجتمع العباسي نكون قد انهينا عرض القسم المتعلق بمآخذه في عرب الجاهلية وصدر الاسلام وعرب الدولة الاموية والعباسية .

---

(١) الجاحظ ،" رسالة حجج النبوة "، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٥ .

(٢) الجاحظ ،"كتاب الحجاب "، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢٩

(٣) المصدر نفسه ، ٢ : ٣٠-٣١ .

آراء الجاحظ في سائر الامم المعتبرة :

من يدرس اقوال الجاحظ في غير العرب يلحظ ان جعبة الجاحظ من الفضائل اتسعت لتشمل اما غير عربية لم يخف الجاحظ اعجابه بها او تقديره لها . فالعرب وان كانت استأثرت بالرسالة ، فان ذلك لم يعن في نظره استئثارها بجملة الخيرات المفاضة من الله على جميع الخلق لانه من باب العدل ان يكون لهذه الامم نصيب في هذه الخيرات والمناقب. قال :

"... وابى الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباده قسمة عدل ،يعطي كل قرن وكل امة حصتها ونصيبها ،على تمام مراشد الدين ،وكمال مصالح الدنيا ."(١)

بيد انه تجدر الاشارة الى ان الجاحظ فتح عينيه على مناقب الامم بالقدر الذى يصب في مصلحة الخلافة العباسية . فهو يرى ان العباسيين في حكم من اقبلت الدنيا عليه بمحاسن غيره وبالتالي فان محاسن الامم المعتبرة التي ظلت تنتقل بين الامم الى ان ورثها العرب خاضعة الى نوع من التسخير اعطاها دورا وظيفيا آخر غير الدور المحلي المعهود ، هو رفادة الخلافة العباسية وترسيخ فضلي الملك والنبوة (٢) المجتمعين فيها . وقد لاحظ الجاحظ ان خيرات الامم هذه تتميز بالاختصاص الحضارى الذى يسم كل امة باسهام حضارى معين يغلب عليها كاختصاص" اهل الصين في الصناعات ،واليونانيين في الحكم والآداب ،والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه ،وآل ساسان في الملك ،والاتراك في الحروب"(٣) وهي مزايا حضارية مقدّر لها ان تصب في بوتقة الخلافة العباسية ، التي ما كانت لتبلغ ذلك الفضل لو لم تسبقها الامم اليه.قال الجاحظ :

---

(١) الجاحظ ،" كتاب في الوكلاء " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٣ .

(٢) انظر : الجاحظ ،" رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ،ج ٢ : ٢١ .

(٣) " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٦٧ .

" وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية ، وحوّلت آداب الفرس.. من امة الى امة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان ،حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . . . ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ،ودوّنت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ،وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم ، لقد خس حظنا من الحكمة ،ولضعف سببنا الى المعرفة . ولو لجأنا الى قدر قوتنا ،ومنتهى تجاربنا . . . لقلت المعرفة وسقطت الهمّة . . . ولكل الحد وتبلّد العقل . "(١)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٧٥و٨٥-٨٦ . ويذهب بعض الدارسين الى عدّ الجاحظ اول من عبر عن مفهوم انتقال حكم الامم الى العقل العربي من خلال انتقاله التدريجي المسبق من امة الى امة . انظر :

Tarif Khalidy, Islamic Historiography, (Albany: State University of New York Press, 1975) p. 82.

وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p. 71.

الفصل الثاني

الهند

مناقب الهند :

لقد لخّص الجاحظ اسهام الهند الحضاري ،وخاصة في الحساب والطب والخط والادب بقوله :

" واما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ،ولهم الخط الهندي خاصة ، ويقدمون في الطب ،ولهم اسرار الطب وعلاج فاحش الادواء خاصة . ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تتخذ في المحاريب[1] واشباه ذلك . ولهم الشطرنج ،وهي اشرف لعبة واكثرها تدبيرا وفطنة . ولهم السيوف القلعية[2] ، وهم ألعب الناس بها واحذقهم ضربا بها . ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الاوجاع. ولهم غناء معجب . ولهم الكنكلة ،وهي وتر واحد يمدّ على قرعة فيقوم مقام اوتار العود والصنج . ولهم ضروب الرقص والخفّة ،ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة[3] ،ولهم معرفة المناصفة[4] ، ولهم السحر والتدخين والدمازكية[5]. ولهم خط جامع لحروف اللغات ،وخطوط ايضا كثيرة. ولهم شعر كثير وخطب طوال ،وطبّ في الفلسفة والادب . وعنهم اخذ

---

(١) ورد النص نفسه في موضعين :" كتاب فضل السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٢٢٣ - ٢٢٤ و" كتاب الاخبار وكيف تصح" ص ٩٧ . مع فروقات بسيطة في الالفاظ . والجملة المذكورة وردت في الموضع الثاني :" مع التصوير بالاصباغ كزى المحاريب" ،ص ٩٧ .

(٢) السيوف القلعية نسبة الى القلعة ، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمّى "كله" وهي اول بلاد الهند من جهة الصين وفيها تضرب السيوف القلعية . والجملة نفسها وردت في" كتاب الاخبار وكيف تصح" ولهم صنعة السيوف الهندية" ص ٩٧ .

(٣) الثقاف حديدة او خشبة تكون مع القوّاس والرمّاح يقوّم بها ما اعوج من الرماح . انظر : ابن منظور " لسان العرب" ،مادة ثقف .

(٤) لم اهتد الى مدلولها في المعاجم .

(٥) الدمازكية او النرمازكية كما يقول المحقق عبدالسلام هارون ،ضرب من اللعوق الطبي . انظر" كتاب فخر السودان على البيضان " رسائل الجاحظ ، ١ : ٢٢٣ .

كتاب كليلة ودمنة. ولهم رأى ونجدة. وليس لاحد من اهل الصبر ما لهم(١) . ولهم من الزى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرن والسواك، والاحتباء، والفرق والخضاب. وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق. والى نسائهم يضرب الامثال. ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندى الذى لا يعدله عود. ومن عندهم خرج علم الفكر، وما اذا تكلم به على السم لم يضرّ (٢). واصل حساب النجوم من عندهم، اخذه الناس خاصة. وآدم عليه السلام انما هبط من الجنة فصار ببلادهم."(٣)

هذه هي جملة المناقب التي وجدها الجاحظ في امة الهند، وهي مناقب تعكس التفاعل الثقافي والتجارى السائد بين المجتمع الهندى والمجتمع العربي. اما التفاعل الثقافي فواضح من اقراره بفضل الهند في علوم الطب والحساب والتأليف القصصي وعلم الفلك. اما التفاعل التجارى فيظهر من معرفة الجاحظ بالسيوف الهندية وآلات عزفهم وتسليتهم المعروفة بالكنكلة، ناهيك عن العود الهندى ذى الرائحة الطيبة.

---

(١) نسب الجاحظ سمة الصبر من قبل للعرب والترك واصناف السودان.

(٢) لعل الجاحظ يقصد بذلك عادة الهند في التأمل الفكرى مع ما يتطلبه من مقامات واحوال. انظر مادة "سترا" في :

- <u>Encyclopaedia of Religion</u>, s.v. "Sutra and Sastra Literature," by Ludo Rocher.
- The Ramakrishna Mission Institute of Culture, <u>Cultural Heritage of India</u>, (Calcutta, 1958), 1: 243-245.

ولعله يقصد ايمانهم بالرقى والتعاويذ والعزائم. راجع في ذلك : البيروني، <u>تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة</u>، (الهند : حيدر آباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٨) خاصة الفصل المتعلق بهذا الموضوع ص ١٥٤-١٥٥ . وانظر ايضا : الجاحظ، <u>كتاب الحيوان</u>، ٤ : ١٤٨ .

(٣) اشار الى ذلك ايضا ابو حيان في تفسيره : <u>البحر المحيط</u> (القاهرة : دار السعادة، ١٣٢٨) ١ : ١٦٣ . بيد ان شارل بلا راى ان المسلمين قالوا ان آدم حين نزل الارض انما نزل ببابل. انظر : <u>كتاب التربيع والتدوير</u>، فقرة ٦٤ .

وقد خصّ الجاحظ ما لعلم الخطوط والحروف الهندية من فضل على علوم الفكر وبالتالي ما اسهمته الحضارة الهندية في الحضارة الانسانية . قال الجاحظ في ذلك :

" ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ، ولبطلت معرفة التضاعيف ، ولعدموا الاحاطة بالباورات [١] وباورات الباورات ، ولو ادركوا ذلك لما ادركوه الا بعد ان تغلظ المؤونة وتنتقض السنّة ولصاروا في حال معجزة وحسور والى حال مضيعة وكلال حد . . ونفع الحساب معلوم ، والخلة في موضع فقده معروفة . قال الله تعالى : الرحمن علّم القرآن ، خلق الانسان ، علّمه البيان . ثم قال : الشمس والقمر بحسبان [٢]. وبالبيان عرف الانسان القرآن . وقال الله تعالى : هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب [٣]. فاجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن . وبحسبان منازل القمر ، عرفنا حالات المد والجزر ، وكيف تكون الزيادة في الاهّلة وانصاف الشهور ، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الاقدار . . فاى نفع اعظم واى مرفق اعون من الخط والحال فيه كما ذكرنا . ولولا الكتب المدوّنة والاخبار المخلّدة والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب وغير الحساب ، لبطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار . . . . " [٤]

---

(١) لم اعثر على معنى هذا اللفظ في تفسير البيروني لنظام الهند الحسابي . انظر : البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة . " ص ١٣٢ - ١٤٣ . ولكن المستشرق شارل بلا قال في تفسيره لهذه الكلمة في ادب الجاحظ انها تعكس بدء معرفة الرياضيين العرب بالنظام الحسابي لدى الهند ، وبالتحديد ، النظام العشرى . وفهم المستشرق ان الباورات هي تلك المذكورة في كتاب البيروني بصيغة البهورى (Bhuri) وانها تدل على الرقم ، مضاعفا ثماني عشرة مرة . (10^{18}) انظر : الجاحظ ، " كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ، الفقرة ٣٧ ص ٢٥ وص ١١٣ . وقد ذكر الجاحظ ان " العكنان " هو الكثير الذى لا يكون فوقه عدد . راجع : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٣٠ .

(٢) الرحمن : ١

(٣) يونس : ٥

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٦ - ٤٨ .

وما خص الله به الهند في نظر الجاحظ ان على ارضها الحيوانات التاليـة ، كالفيل والببر والطاوس والببغاء والدجاج السندى والكركدن . قال :

" والهند اصحاب الببور والفيول كما ان النوبة اصحاب الزرافات دون غيرهم من الامم . واهل غانة انما صار لباسهم جلود النمور لكثـرة النمور بها الا انها على حال موجودة في كثير من البلدان . . . اما الفيل والببر والطاوس والببغاء والدجاج السندى والكركدن مما خص اللـه به الهند ." (١)

واورد الجاحظ نظرية لغوية للهند في سبب اختلاف اللغات . قال :

" وتزعم الهند ان سبب ماله كثر كلام الناس واختلفت صور الفاظهم ومخارج كلامهم ، ومقادير اصواتهم في اللين والشدّة وفي المدّ والقطـع ، كثرة حاجاتهم . ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف الفاظهم ، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم . قالوا : فحوائـج السنانير لا تعدو خمسة اوجه : منها صياحها اذا ضربت ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اخواتهـا وآلافها ، ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اولادها للطعم ، ولذلـك صورة . وصياحها اذا جاعت ، ولذلك صورة . فلما قلّت وجوه المعرفـة وجوه الحاجات ، قلّت وجوه مخارج الاصوات . واصواتها تلك فيما بينها هو كلامها ." (٢)

والجدير بالذكر ان الجاحظ عدّ الهند من جنس السودان الذين يفضلـون البيضان في نظره ، بالخصائص المذكورة آنفا وخاصة التي وردت في رسالة فضل السودان على البيضان . وان " السندى " في مفهوم الجاحظ غير الهندى لان الاول وان كـان من السودان ، ويسكن قرب بلاد الهند فقد عدّه الجاحظ من " الاجناس الذليلة " (٣) ، وبالتالي هو بعيد عن الامم المعتبرة ونترك معالجته الى حينه من الرسالة (٤) . ولا نجـد

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٧، : ١٣٤ و ١٧٠ .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤، : ٢١-٢٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٧١ وكتاب التربيع والتدوير ، الفقرة ٤٧ .
(٤) في الفصل المتعلق بمثالب السودان ، وذلك في الباب الثاني من الرسالة .

في سائر كتابات الجاحظ في مناقب الهند الا اشارات بسيطة كالتي تعكس اعجابه بقول في الحكمة لملك هندى (١) او بتمتع الهند بخلق الحنين الى الاوطان (٢).

(١) كاستشهاده بقول لملك هندى : " اذا تكلمت بكلمة ملكتني ، وان كنت املكها ." انظر الجاحظ في المحاسن والاضداد ، ص ١٨ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣٨٥ .

مثالب الهنـــد :

اما الذى اخذه الجاحظ على الهند فهو انهم يجمعون الى الحكمة في دنياهم، جهلا عظيما في امور دينهم . قال :

" ... وهم مع ما ذكرنا ، اصحاب بِدَدَة ، (وهي جمع بد والبد الصنم) ينحتونها بايديهم ثم يعبدونها ويجعلون لها بيوتا كمساجد المسلمين وفيها بنات روءسائهم موهوبة لتلك البددة [1] على وجه التقرب بها والنذور والكفارات ؛ وتلك النساء واقفة للفساد والفجور يأمرها اهلها بذلك ويرون ان لهم فيه اجرا عظيما ، ولهم عبّاد ورهبان في تلك البيوت متجردون عن اللباس ، يدّعـون الزهد في الدنيا ، لا يمسّون الماء ويتبركون باوساخهم ، ويختبرونهم بتلك النساء وملاعبتها . فمن اشتاق من اولئك العبّاد الى تلك النساء وهاج ، فقد كفـر كفرا عظيما واتى باعظم منكر والحقوه انواع العذاب والنكال وقتلوه . هذا فـي الزهّاد خاصة ، فاما غيرهم فلا ينكرون عليهم الفجور بتلك النساء . واذا اشتاق الهنود الى زيارة موتاهم اضرموا النيران وحملوا معهم الهدايا واللطائـف وتضمّخوا بالصندل وتكفّنوا ورموا بانفسهم في تلك النيران ويزعمون انهم يرجعون الى اهليهم اذا قضوا وطرا من زيارة موتاهم . وهذا عجيب في جمع الهند بين الحكمة في دنياهم والجهـل العظيم في دينهم . " [2]

---

(1) البددة هي الاصنام ويبدو ان الجاحظ قد ألّف كتابا في هذا الموضوع دعـاه " كتاب الاصنام " ذكره في جملة موءلفاته التي عدّدها في مقدمة <u>كتاب الحيـوان</u> (١ : ٥ ، ساوى فيه في النقد بين العرب والهند على انهم عبّاد البـددة ووجه الشبه بينهما في رأيه " ان عبّاد البددة المتمسكين بعبـادة الاوثـان المنحوتة والاصنام المنجورة ، اشد الديّانين الفا لما دانوا به وشغفا بما تعبّـدوا له واظهرهم جدا واشدّهم على من خالفهم ضغنا ، وبما دانوا ضنّا . " <u>كتـاب الحيوان</u> ١ : ٥ . اى ان العرب والهند لا يتنازلون بسهولة عن اصنامهـم لشدة سيطرة التقليد على عقولهم . وكلمة البددة (بكسر الباء وفتح الدالين) التي استعملها الجاحظ هي من الكلام الفارسي المعرّب . مفردها البد اى الصنم وفـي القاموس انه معرّب بُتّ . انظر الجواليقي : <u>المعرّب من الكلام الاعجمي على حـروف المعجم</u> ، تحقيق احمد شاكر (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١هـ) ص ٨٣ . وقد اشار الجاحظ الى مسألة عبادة الاصنام لدى الامم في كتاب <u>التربيع والتدويـر</u> فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(2) الجاحظ ، كتاب " الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٨ . وانظر ايضا رسالة الجاحظ فـي الحكمين " ، مجلة المشرق ، ص ٤٧٣ .

ولم يتعرّض الجاحظ الى نقد عادات الهند الدينية فحسب وانما نقد آراءهم في امور الطب والحيوان كانتقاده لمفهوم الهند للبرص . قال : " واطباء الهند تزعم ان العقوق يورث البرص ، وهذه القصة مجانبة لسبيل الطب . . . "(١)

وكذلك انتقد الجاحظ رأى علماء الهند في حيوان الكركدن اذا حان وقت ولادته :

" وقد قالوا في ولدها وهو في بطنها قولا لولا انه ظاهر على ألسنة الهند ، لكان اكثر الناس ، بل كثير من العلماء يدخلونه في باب الخرافة وذلك انهم يزعمون ان ايام حملها اذا كادت ان تتم ، واذا نضجت وجرى وقت الولادة ، فربما اخرج الولد رأسه من ظبيتها فأكل من اطراف الشجر ، فاذا شبع ادخل رأسه ، حتى اذا تمت ايامه وضاق به مكانه ، وانكرته الرحم ، وضعته مطيقا قويا على الكسب . . . ولا اقرّ ان الولد يخرج رأسه من فرج امه . . ثم يدخل رأسه ، ولست اراه محالا ولا ممتنعا في القدرة ولا ممتنعا في الطبيعة . . . الا ان قلبي ليس يقبله . . . ولم نجد القرآن ينكره . . . والله هو القادر دون خلقه ، ولست ابتّ بانكاره وان كان قلبي شديد الميل الى ردّه . . . . "(٢)

كما تعرّض الجاحظ بالنقد لآراء الهند في علم الكيمياء . قال :

" والسم يقتل بالكمّ والكيف والجنس . والكمّ : المقدار . والكيف : الحد . والجنس : عين الجوهر وذاته . وتزعم الهند ان السم انما يقتل بالغرابة ، وان كل شيء غريب خالط جوف حيوان قتله . وقد ابى ذلك ناس فقالوا : " وما باله يكون غريبا اذا لاقى العصب واللحم وربما كان عاملا فيهما جميعا . بل ليس يقتل الا بالجنس وليس تحسّ النفس الا بالجنس . ولو كان الذى يميت حسّها انما يميته لانه غريب ، جاز ايضا ان يكون الحساس انما حس لانه غريب . ولو كان هذا جائزا لقيل في كل شيء . وقال ابن الجهم : لولا ان الذهب المائع ،

---

(١) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان . . ص ٣٦ - ٣٧ . وقد علق الجاحظ على هذا الزعم بقوله : " وهذا مما لا يعرف في الطب . " انظر : كتاب التربيع والتدوير ، الفقرة ١٥٦ ص ٨٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٧ : ١٢٣ و ١٢٥ .

والفضة المائعة ،يجمدان اذا صارا في جوف الانسان ،واذا جمدا لم يجاوزا مكانهما - لكانا من القواتل بالغرابة ... ."(١)

وقد ساوى الجاحظ في انفاق المجوس على بيت النار وفي انفاق الهند على سدنة البددة من جهة ، وبين انفاق الزنادقة على تحسين كتبهم الذى وصل حد المغالاة . (٢) اما ظاهرة الاستيحاش وادعاء الهند مخاطبة الجن لهم ،مع تفنن سدنتهم في خداع الناس فمما اخذه الجاحظ على هذه الامة ايضا . قال :

". . . وكانت لسدنة الهند حيل وألطاف لمكان التكسب . ولو سمعت او رأيت بعض ما قد اعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم، لعلمت ان الله تعالى قد منّ على جملة الناس بالمتكلمين،الذين قد نشأوا فيهم ."(٣)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ،٤ : ٣١٩ .

(٢) المصدر نفسه ،١ : ٥٥-٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ،٦ : ٢٠١ والمخاريق يراد بها تلك الالاعيب التي يلجأ اليها المشعوذون واحدها مخراق . انظر الحيوان ،٤ : ٣٧٨. هذا مع العلم ان الجاحظ يرى هلاك المتكلمين لولا المعتزلة . انظر المصدر نفسه ،٤ : ٢٨٩ .

الفصل الثالث

الفرس

مناقب الفرس :

عدّ الجاحظ الفرس من الامم المعتبرة اى من الامم " التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات "،(١) وقد اوجز مناقبها بقوله :

"... ثم ملنا الى فارس ،فوجدنا هناك العقول التي لا تبلغها عقول والاحلام التي لا تشبهها احلام ، والسياسة العجيبة والملك المؤيد بتدبير الامور والعلم بالعواقب ...."(٢)

ولم يخف الجاحظ اعجابه بالاقوال الحكمية الفارسية ، التي استشهد بها في كتاباته ، قال :

"... وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الاسكندر وهو قاتل دارا بن دارا : ما ظننت ان قاتل دارا يموت. وهذا القول هو امدح منه لقاتله. ولم اسمع للعجم كلمة قط امدح منها،واما العرب فقد اصبت لهم من هذا الضرب كلاما كثيرا ... وقال بهرام ، وقد سمع في الليل صوت طائر فتحدّاه بسهم وهو لا يراه ،الا انه تتبع الصوت فصرعه فلما صار بين يديه قال : والطير ايضا لو سكت كان خيرا له ... وقال ديوست المغني لكسرى حين امر بقتله ، لقتله تلميذه بلهبذ : قتلت انا بلهبذ وتقتلني فمن يطربك؟ قال : خلّوا سبيله ، فان الذى بقي من عمره هو الذى انطقه بهذه الحجة... وقال اردشير : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع...."(٣)

---

(١) الجاحظ ،" كتاب الاخبار وكيف تصح ، المجلة الآسيوية ،ص ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ،ص ١٠٠ .

(٣) انظر: الجاحظ ،" رسالة في نفي التشبيه ،" رسالة الجاحظ ،ج ١ : ٣٠٤و" رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ،" المصدر نفسه ،ج ١ : ١٦٧و" رسالة في الجد والهزل" ، المصدر نفسه ،ص ٢٥٨ ،والبيان والتبيين ،ج ٣ : ١٦٩ . وبهرام هو اسم لعدة ملوك من الفرس اشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ونشأ عند ملوك الحيرة كما قال المسعودى في التنبيه والاشراف (بيروت : مكتبة ==

وقد حفل كتاب المحاسن والاضداد بطائفة من اقوال الحكمة الفارسية هذه ، قال الجاحظ :

"... قال الكسروى : وقّع كسرى بن هرمز الى بعض المُحبَسين مَن صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به .. ومن أكل بلا مقدار ، تلفت نفسه .." وقال بهرام جور : " من احب ان يعرف فضل الجود على سائر الاشياء فلينظر الى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله بالجنان ، فانه لولا رضاه الجود لم يصطفه لنفسه ." وقال بزرجمهر : " من انتظر بمعروفه شكرك عاجل المكافأة ." ووجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها : " ان حاجة الله الى عباده ان يعرفوه ، فمن عرفه فلم يعصه طرفةعين.. ."(١)

ومن مناقب الفرس ما ذكره الجاحظ من اخلاق ملوك الفرس في الصيد ، قال :

"... وزعموا - وكذلك هو في كتبهم - ان ملوك فارس كانت لهجة بالصيد ؛ الا ان بهرام جور هو المشهوربذلك ... كان الملك من الاكاسرة اذا اصطاد عيرا وسمه باسمه ، وبيومه الذى اصطاده فيه ، واطلقه ، فان تهيأ ان يصطاد ذلك العير بعينه ملك من بعده ، وسمه مع وسم الملك الذى قبله بمثل تلك السمة وخلّاه يذهب ... فعرف آخرهم صنيع اولهم ، وعرفوا مقدار مقادير اعمارها ...."(٢)

وقد اشاد الجاحظ بحسن ادارة الفرس في توزيعهم الاعمال على ذوى الاختصاص قال :

"... ولم يجعلوا للصانع ان ينتقل عن صناعته الى الكتابة ، ولم يجعلوا للكاتب ان ينتقل من كتابته الى القيادة ، ولم يجعلوا لابنائهم إلا شكل

(==) خياط ، ١٩٦٥) ، ص ١٠١ وانه "كان فصيحا بالعربية وله بها شعر صالح". واما كسرى المذكور فهو كسرى ابرويز بن هرمز احد ملوك الساسانيين في عهد بعثة النبي محمد . اما اردشير بن بابك فكانت الفرس تعوّل على تاريخ ملكه في تأريخ سنواتها وتحصيل ايام ملوكها . انظر المصدر نفسه ، ص ١٢٧ . واردشير بن بابك المذكور هو اول ملوك الساسانية ، فهو ابن بابك بن ساسان . ملك اربع عشرة سنة ثم سلم الملك الى ولده سابور . وكان اردشير افلاطوني المذهب . انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

(١) الجاحظ ، المحاسن والاضداد ، ص ٣٣ ، ٦٤ و ٢٩٥ و ٩٥ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٠ و" كتاب في البغال" رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣١٢ .

ما كان لآبائهم ، ليعوّدوا الناس عادة يستوحشون معها الى الخروج منها . . . .» (١)

ولاحظ الجاحظ ان من مناقب ملوك الفرس ايضا ، فضيلة الحنين الى الاوطان ، مع ما تعكسه من « طيب العنصر ونفاسة الجوهر » (٢) قال :

« ووجدنا من العرب من كان اشرف على نفسه وافخر في حسبه، ومن العجم : من كان اطيب عنصرا وانفس جوهرا ـ اشد حنينا الى وطنه ، ونزاعا الى تربته . . . وحكى الموبذ انه قرأ في سيرة اسفنديار بن يستاسف ابن لهراسف ، بالفارسية ، انه لما غزا بلاد الخزر ليستنقذ اخته من الاسر ، اعتلّ بها ، فقيل له : ما تشتهي ؟ قال : شمّة من تربة بلخ ، وشربة من ماء واديها . واعتل سابور ذو الاكتاف (٣) بالروم ، وكان ماسورا ، فقالت له بنت ملك الروم وقد عشقته : ما تشتهي مما كان فيه غذاؤك ؟ قال : شربة من ماء دجلة ، وشمّة من تربة اصطخر . فغبرت عنه اياما ثم اتته يوما بماء الفرات ، وقبضة من تراب شاطئه ، وقالت : هذا من ماء دجلة وهذه من تربة ارضك ، فشرب واشتم من تلك التربة ، فنقه من مرضه . . . ولما افتتح وهرز بن شيرزاذ بن بهرام جور اليمن ، وقتل ملك الحبشة المتغلّب على اليمن ، اقام بها عاملا لانوشروان ، فبنى نجران اليمن ـ وهي من احصن مدن الثغور ـ فلما ادركته الوفاة اوصى ابنه شيرزاذ ان يحمل الى اصطخر ناوس ابيه ، ففعل به ذلك . فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، ولا غادروا في اسفارهم شهوة ، حنّوا الى اوطانهم ، ولم يؤثروا على تربهم ومساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم المستفادة بالتغازي والمدن المغتصبة من ملوك الامم .» (٤)

---

(١) الجاحظ ، العثمانية : ١٨٦ . وقد اتى هذا الكلام في معرض كلام الجاحظ عن سلمان الفارسي .

(٢) الجاحظ ، « رسالة الحنين الى الاوطان » ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ .

(٣) وسابور ذو الاكتاف، ملك فارس، حمل نصارى المشرق على التمجّس فامتنعوا من ذلك وقتل منهم نحوا من مئتي الف . راجع المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٤٩ .

(٤) الجاحظ ، « رسالة الحنين الى الاوطان » ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

ومن مناقب الفرس وبالتحديد اهل خراسان ،مساهمتهم في الدعوة العباسية وترسيخها كما يستفاد من قوله : دولة بني العباس عجمية خراسانية [1] . وبما ان هناك فرقا بين المدلول الجغرافي لمصطلح اهل خراسان ، والمدلول السكاني له ، فلابأس من استخراج اقوال الجاحظ فيمن يقصده بالفضل المذكور ، وبالتحديد في الخراسانيين الفرس والخراسانيين الابناء ،[2] دون الخراسانيين الترك والخراسانيين العرب.

اما الخراسانيون الفارسيون فقد نسب الجاحظ لهم نصيبا من الفضل في مساهمتهم في نصرة الدعوة العباسية ،وخاصة طبقة اشرافهم او ما يسمّى بالآزاذ مردية . قال :

"... والخراساني يقول : نحن النقباء وابناء النقباء ... ومنا الدعاة قبل ان تظهر نقابة .. وقبل كشف القناع وزوال التقية وزوال ملك اعدائنا

---

(١) الجاحظ ،البيان ، ٣: ٣٦٦ .

(٢) ان مصطلح اهل خراسان يشمل ثلاثة اجناس كما هو واضح في "رسالة مناقب الترك " للجاحظ . فالخراسانية هم سكان اقليم خراسان المحليين اى هم الايرانيون المحليون الذين دخلوا في الاسلام اثر الفتوحات الاسلامية لديارهم كما يشملون فئة الابناء او البنويين الذين هم خراسانيون من جهة الولادة ،راجع "رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ، ج ١: ٣١ . والخراسانية هم الاتراك الذين استقروا واستوطنوا في اقليم خراسان من بلاد فارس ، اى هم الفئة المتحضرة من الترك القادمة من بلاد ما وراء النهر وقد عرفوا بالخراسانية لوجودهم في خراسان . قال الجاحظ :" ان الاختلاف بين الخراساني والتركي كالاختلاف بين البدوى والحضرى والسهلي والجبلي ." المصدر نفسه ، ص ١٠ . والخراسانية هم ايضا القبائل العربية المستوطنة في خراسان اثر الهجرة من البصرة والكوفة والشام لاغراض الفتوح العسكرية. قال الجاحظ : والخراسانية هم ابناء العرب والاعراب الذين نزلوا خراسان . المصدر نفسه، ص ٦٣ . والخلاصة ان الجاحظ شمل في رسالته المذكورة بالفضل اهل خراسان جميعا لرغبته في جمع شمل جند الخلافة العباسية . وما دام الكلام يدور حول مناقب الفرس ، فالمقصود بالفضل هم الخراسانيون الفرس والخراسانيون الابناء .

عن مستقره، وثبات ملك اوليائنا في نصابه . . . ومنا الزغنـــــــــدية والآزاذمردية . . . ونحن اهل هذه الدولة واصحاب هذه الدعوة ومنبت هذه الشجرة . . . والانصار انصاران : الأوس والخزرج نصروا النبـــــي صلى الله عليه وسلم في اول الزمان ، واهل خراسان نصروا ورثته في آخـــر الزمان . . . وليس في الارض صناعة غريبة من ادب وحكمة وحساب وهندسة وايقاع وصنعة وفقه ورواية نظرت فيها الخراسانية الا فرعت فيها الرؤساء وبزّت فيها العلماء". (١)

واما البنويون او الابناء فهم كما يقول الجاحظ خراسانيون من جهة الولادة ، ولهم فضلهم ايضا في الدعوة العباسية . قال :

" . . . ان البنوى قال : انا اصلي خراسان ، وهي مخرج الدولة ومطلـــع الدعوة ، ومنها نجم هذا القرن وصبأ هذا الناب، وتفجّر هذا الينبوع . . . وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة . . . وفيها بقية رجال الدعوة ، وابنـــاء الشيعة ، وهي خراسان العراق ، وبيت الخلافة . . . وانا اعرق في هـذا الامر من ابي واكثر ترددا فيه من جدى(٢). ولنا بعد في انفســـنا

---

(١) الجاحظ ، " مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٤ ، ١٥ و ٢٠ . ولا يستبعد الدارس فاروق عمر ان يكون غير العرب قد اشترك في الدعوة العباسية ، الا انه لا يمكن مقارنتهم بالعرب من حيث الدور والفعالية . وهذا القول الذى يـــرى ان اكثرية الدعاة كانوا عربا ، (فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت : دار الارشاد ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ و ١٥٩ - ١٦٠ و ٣٠١) ، يطرح استفهامـــا حول مقولة الخراسانيين اعلاه وخاصة الآزاذمردية التي هي طبقة اشراف الفـــرس اى الطبقة الارستقراطية الايرانية المتعاهدة مع ولاة بني امية على اخذ الضرائـــب من العرب المستوطنين ، اى انها كانت ضد الدعوة العباسية المهددة لمصالحهم وامتيازاتهم فكيف يساهم الفرس النبلاء في ثورة لا مصلحة لهم فيها ؟

(٢) في ذلك اشارة الى ما قلناه من ان اصلهم خراساني اى فارسي من جهة الولادة ، فمصطلح الابناء يعني اولئك الذين اجتذبتهم الحروب من بلاد فارس الى جزيـــرة العرب منذ ان استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى (٥٣١ - ٥٧٩)م ، لينصره على الحبشة التي غزت اليمن ، بارسال قائده وهرز . وقد ملكوا اليمن وتزوجوا في العرب فقيل لاولاد هم الابناء ، لان امهاتهم من غير جنس آبائهم . فالابناء ، اى اولاد المهاجرين الفرس ، يفخرون اعلاه انهم افضل من آبائهم الذين نصروا العرب في الجاهلية . انظر : الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك" ، ج ١ : ٥٣ ومادة ابناء فـــي : Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Abna'," by K.V. Zettersteen.

ما لا ينكر من الصبر تحت السيوف القصار والرماح الطوال . . . ونحن اهل الثبات عند الجولة والمعرفة عند الحيرة . . . وزينة العساكر وحلي الجيوش . . . ونحن اصحاب الفتك والا قدام . . . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار . ونحن اصحاب الخط والكتابة والفقه والرواية . ولنا بغداد باسرها تسكن ما سكنّا ، وتتحرك ما تحركنا والدنيا كلها معلقة بها وصائرة الى معناها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ، ولدنا في افنية ملوكنا ونحن اجنحة خلفائنا . . . . "(١)

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك ، " رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٥ - ٢٨ .

مثالـــب الفـــــرس :

مما اخذه الجاحظ على الفرس ، اعتناقهم لدين زرادشت [1] وقد تناول فـــي ذلك الخاصة والعامة. والمقصود بالخاصة " كسرى ابرويز وآباؤه واحباؤه وقرابينه وكتّابه واطباؤه وحكماؤه واساورته " [2] واما العامة فقد قال فيها الجاحظ وقد دعاهـــــا بالمجوس :

" . . . وكانوا يغشون الامهات ويأكلون الميتة [3] ويتوضؤن بالابوال والماء موجود عندهم . ويعظّمون النار وهم اظهروها وان شاؤا اطفؤوهـــا . ويقولون ان الله كان وحده لا شيء معه فلما طالت وحدته استوحش فلمـا استوحش فكّر فلما فكّر تولد من فكرته " اهرمن " وهو ابليس . فلما مثل بين يديه اراد قتله . فلما اراد قتله امتنع فصالحه الى اجل معلوم ووادعـه الى مدة مسماة . . ثم ان اهرمن نوى الغدر ، وذلك شيمته . فأنشـأ يخلق اصناف الشر يستمد بها عليه ،فلما عرف ذلك منه انشأ يخلـق اصناف الخير ليضع بازاء كل جند جندا . . ثم قالوا في قسمة العوالـم عندهم وفي اسمائها وجواهرها وهيئاتها وفي خلق مهنة ومهينة وهمـا آدم وحواء . وفي سوبين المنتظر عندهم ،ما لا يستطيع وصفه احمـق منقوص ولا عالم تام ولو جهد كل جهده واستفرغ كل قوته . . . . " [4]

---

(1) زرادشت رجل ظهر في عهد كيشتاسب بن كيلُهراسب ،من ملوك الفـــرس. وقد اتاه بدين المجوسيه فقبلها الملك وحمل اهل مملكته عليها وقاتل عليهـا . وكان الفرس قبل ذلك على رأى الحنفاء الصابئين . انظر: المسعودي ،التنبيه والاشراف ،ص . ٩ . وزرادشت هو صاحب الابستاق وشرحه الزندبستا . ظهـر قبل الاسكندر بنحو ثلاثمئة سنة على ما في التنبيه والاشراف ، ص ٩٨ . وقـد ظهر من بعده " مزدق " فتأوّل الابستا وجعل لظاهرها باطنا واستخلص مـن ذلك الديانة المزدقية . انظر المصدر نفسه ،ص ١٠١. وقد دعا زرادشت دعوته -كما يؤرخ المسعودي- خلال الطبقة الثالثة من ملوك الفرس. اما مزدق فخلال الطبقة الخامسة من ملوك الفرس .

(2) الجاحظ ،كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(3) اشار الجاحظ الى ان الفرس انما فعلوا ذلك استجابة لزرادشت الذي دعـا الى نكاح الامهات. انظر: كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤. واشار ايضا الى أكلهـم المتردية والمنخنقة . المصدر نفسه ،٤ : ٩٥ .

(4) الجاحظ ، " كتاب الاخبار " ص ١٠٠ - ١٠١ .

وقد تناول الجاحظ في كتاباته المظاهر المختلفةلدين زرادشت بالنقـــد والسخرية ، كقوله في تعظيم زرادشت لشأن النار وعلة تخويفه اصحابه بالبرد والثلج دونها :

" وزرادشت هو الذى عظّم النار وامر باحيائها ، ونهى عن اطفائها ،ونهى الحيّض عن مسّها والدنو منها . وزعم ان العقاب في الآخرة انما هو بالبرد والزمهرير والدمق . وزعم اصحاب الكلام ان زرادشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ وادعى ان الوحي نزل عليه على جبال سيلان . وانه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة ،الذين لا يعرفـون الا الاذى بالبرد ،ولا يضربون المثل الا به . . . فلما رأى موقع البـرد منهم هذا الموقع ، جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن ان ذلك ازجر لهم عما يكره . وزرادشت في توعده تلك الامة بالثلج دون النار ،مقرّ بانه لم يبعث الا الى اهل تلك الجبال . وكأنه اذا قيل له : انت رسول الى مـن ؟ قال لاهل البلاد الباردة ، الذين لابد لهم من وعيد ،ولا وعيد لهـم الا بالثلج . وهذا جهل منه ،ومن استجاب له اجهل منه . . . فلو كـان المبالغة في التنفير والزجر اراد ،واليه قصد ،لذكر ما هو في الحقيقة عنـد الامم اشدّ . والوعيد بما هو اشد ،وبما يعمّ الخوف سكان البلاد الباردة والحارة اشبه ، اذا كان المبالغة يريد ."(١)

اما مقولة اتباعه من المجوس في بدء الخلق فقال فيها الجاحظ :

" . . . وزعم المجوس ان الناس من ولد مهنة ومهنينة . وانهما تولّـدا فيما بين ارحام الارضين ،ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هرمز حين قتلـه هرمز . وحماقات اصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب . . . ."(٢)

وقد فصّل الجاحظ مقولة المجوس ان الفأرة من خلق الله وان السنور مـن خَلق الشيطان ،كما في النص الذى ورد آنفا ، وتناولها بالنقد والتعجّب ،قال :

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٦٦ - ٦٨ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ١، : ١٩٠ .

" ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفأرة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان ،وهو ابليس ،وهو اهرمن . قيل له : كيف تقول ذلك والفأر مفسدة ،تجذب فتيل المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة ،والمدن العظام والارباض الواسعة ،بما فيها من الناس والحيوان والاموال ،وتقرض دفاتر العلم ،وكتب الله ،ودقائق الحساب ،والصكاك . . . والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفأر (١) فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ،وخلق النافع من الضرر من خلق الشيطان ؟ . . . وقال: لان السنّور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة . فهل سمعت بحجة قط ،او بحيلة ،او باضحوكة او بكلام ظهر على تلقيح هرة ،يبلغوُن هذا الاعتلال ؟ فالحمد لله الذى كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم . . . ."(٢)

كما ان الجاحظ لم يملك الا تفنيد مقولة ثانية للمجوس الذين رأوا ان العظايا فاتها نصيبها من السموم التي كان يوزّعها "اهرمن" على عالم الحيوان ،فقال :

". . . وزعم زرادشت ان العظايا ليست من ذوات السموم . . . وان اهرمن لما قعد ليقسم السموم ،كان الحظ الاوفر لكل شيء سبق الى طلبه ،كالافاعي والثعابين والجرّارات . . . فاما العظاية ، فانها احتبست عن الطلب حتى نفذ السم . . . فلما جاءت العظاية وقد فني السم ، دخلها من الحسرة وما علاها من الكرب ، حتى جعلت وجهها الى الخرابات والمزابل . فاذا رأيت العظاية تمشي مشيا سريعا ثم تقف ،فان تلك الوقفة انما هي لما يعرض لها من التذكر والحسرة على ما فاتها من نصيبها من السم . . ولا اعلم العظاية في هذا القياس الا اكثر شرورا من الوزغ ،لانها لولا افراط طباعها في الشرارة ،لم يدخلها من قوة الهم مثل الذى دخلها . . . ."(٣)

---

(١) ذكر الجاحظ هذه القصة ايضا في كتاب الحيوان ،٥ : ٣١٩ وقال :" فالامم كلها على التفادى من الفأرة واتخاذ السنانير لها ."

(٢) الجاحظ ،الحيوان ،٤ : ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٣) العظاية هي دويبة ، انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

ورمى الجاحظ الفرس بالتناقض والحماقة لجهلهم ان العظاءة اكثر شـــرا من الافعى . قال :

"... ولم ار قولا اشد تناقضا ولا اموق من قولهم هذا ،لان العظاءة لم يكن ليعتريها من الاسف على فوت السم ، على ما ذكروا اولا ،الا وفي طبعها من الشرارة الغريزية اكثر مما في طبع الافعى ."(١)

وقد سلك الجاحظ مسلكا تعليليا في عرض مآخذه على الفرس حين استنتج بأن عقيدتهم لا تتبع احكام العقل ،وانما تتبع المنشأ والتقليد . قال :

"... فان تعجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآبائه ،واحبائـــه وقرابينه ،وكتّابه واطبائه ، وحكمائه واساورته ـ فاني اقول في ذلك قـــولا تعرف به اني ليس الى العصبية ذهبت ... فداء المنشأ والتقليـــد داء لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبـــراء ، وتقليد الاسلاف ،والف دين الآباء ،والانس بما لا يعرفون غيـــره ، يحتاج الى علاج شديد ،والكلام في هذا يطول . فان آثرت ان تتعجـب ، حتى دعاك التعجب الى ذكر ابرويز ،فاذكر سادات قريش فانهـــم فوق كسرى وآل كسرى ."(٢)

واذا كان داء التقليد والمنشأ سببا في اعتناق كسرى وخاصته ،للزرادشتية ،فان سبيل زرادشت نفسه مع قومه كان يعتمد في مفهوم الجاحظ ، على عوامل اخرى كشيوع الفساد وانعدام الحرية فيما بين عامتهم وخاصتهم . قال الجاحظ :

"... وزرادشت بهذا العقل دعا الناس الى نكاح الامهات ، والـــى التوضؤ بالبول ... ولولا انه صادف دهرا في غاية الفســاد وامة فـــي غاية البعد من الحرية ... لما تم له هذا الامر . وقد زعم ناس ان ذلك انما كان وانما تم لانه بدأ بالملك ،فدعاه على قدر ما عرف من طباعـــه وشهوته وخلقه . فكان الملك هو الذى حمل على ذلك رعيته(٣) . . ولا يجوز ان يكون الملك حمل العامة على ذلك الا بعد ان يكون زرادشت الغى على ذلك الفساد اجناد الملك . ولم يكن الملك ليقوى على العامة باجناده ،وبعشرة

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٧

(٣) راجع المسعودى ، التنبيه والاشراف ،ص ٩٠ .

اضعاف اجناده ، الا ان يكون في العامة عالم من الناس ، يكونون اعوانا للاجناد على سائر الرعية . . . وقد ينبغي ان يكون ذلك الزمان كان افسد زمان ،واولئك الاهل كانوا شر اهل . ولذلك لم ترقط زا دين تحوّل الى المجوسية عن دينه . ولم يكن ذلك المذهب الا في شقّهم وصقعهم من فارس والجبال وخراسان ،وهذه كلها فارسية ."(١)

ولم يكتف الجاحظ بسرد المآخذ الدينية على الفرس وانما خصّهم ايضا بنقد سلوكهم الاجتماعي وبالتحديد ما شاع في اقليم خراسان واقليم الاهواز من بلاد فارس.
اما خراسان ، فقد لاحظ الجاحظ شيوع البخل في انسها وحيوانها ، قال :

". . . نبدأ باهل خراسان لاكثار الناس في اهل خراسان . ونخص بذلك اهل مرو ، بقدر ما خصّوا به من بخل . قال ثمامة بن الاشرس(٣) : لم ار الديك في بلدة قط الا وهو لافظ يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدّام الدجاجة ،الا ديكة مرو،فاني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب. فعلمت ان بخلهم شيء في طباع البلاد ،وفي جواهر الماء ، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم. فحدثت بهذا الحديث احمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من اهل مرو. وصبي له صغير يلعب بين يديه . فقلت له : اما عابثا واما ممتحنا . اطعمني من خبزكم ، قال : لا تريده ،هو مر . فقلت : فاسقني من مائكم. قال : لا تريده ،هو مالح . قلت : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريده هو كذا وكذا . الى ان عددت اصنافا كثيرة . كل ذلك يمنعنيه ويبغّضه اليّ . فضحك ابوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علّمه ما تسمع ؟ يعني ان البخل طبع فيهم وفي اعراقهم وطينتهم . . . ."(٤)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤-٣٢٦ .

(٢) ثمامة بن الاشرس من أئمة المعتزلة في عهد المأمون . اسمه ابو بشر ثمامة بن الاشرس النميري . كان خصيصا بالمأمون . انظر ابن خلكان ،وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ،(بيروت : دار الثقافة ،١٩٧٢) ج ٦ : ١٧٧.

(٣) الجاحظ ، البخلاء ، ص ١٣ .

واما الاهواز فقد قال الجاحظ انها لم تعرف بمأثرة حميدة لكونها مجمع الشرور والاوبئة ولان فسادها لم ينج منه من سكنها من بني هاشم ايضا ،وذلك لفساد عقول الاهواز ولؤم طبع بلادهم. قال :

" واما قصبة الاهواز ،فانها قلبت كل من نزلها من بني هاشم الى كثير من طباعهم وشمائلهم. ولابد للهاشمي ، قبيح الوجه كان او حسنا ، او دميما كان او بارعا رائعا ، من ان يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب. فلقد كادت البلدة ان تنقل ذلك فتبدّله ،ولقد تخيّفته وادخلت الضيم عليه وبيّنت اثرها فيه ،فما ظنك بصنيعها في سائر الاجناس ؟ ولفساد عقولهم ولؤم طبع بلادهم ،لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ،والضياع الفاشية ،يحبون من البنين والبنات ما يحبه اوساط اهل الامصار على الثروة واليسار ، وان طال ذلك . . . وليس في الارض صناعة مذكورة ،ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود ،لهم في شيء منه نصيب وان خسّ . ولم ار بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية . . . وهي قتّالة للغرباء . وعلى ان حمّاها خاصة ليست للغريب باسرع منها الى القريب. ووباؤها وحمّاها ،في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمّى عن جميع البلدان . . . وكذلك جمعت سوق الاهواز(١) الافاعي . . . ولو كان في العالم شيء هو شر من الافعى والجرّارة ، لما

---

(١) سوق الاهواز احد الاماكن الوبئة التي كان يضرب بها المثل في فساد الهواء واعتلال الصحة . وهو قصبة بلاد الاهواز او خوزستان ،وما يسمى الان عربستان . انظر :

Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate. (Cambridge, 1905),p.232.

والاهواز جمع هوز او خوزى ،نسبة لقبيلة محاربة ،نمت تحت الحكم الاموي والعباسي ، وقد حصلت ثورة الزنج فيها خلال القرن الثالث الهجرى،التاسع م.انظر :

Encyclopaedia of Islam,new ed., s.v. "Al-Ahwāz," by L. Lockhart.

وقد ذكر ياقوت الرومي الحموي في معجمه البلدان ،ما يدل على انه كان ينقل عن الجاحظ . قال :" واهل الاهواز معروفون بالبخل والحمق وسقوط النفس. ومن اقام بها سنة نقص عقله . وقد سكنها من الاشراف فانقلبوا الى طباع اهلها وهي كثيرة الحمّى ووجوه اهلها مصفرّة مغبرّة . وقال مستشهدا باحمد بن محمد الهمداني : اهل الاهواز ألأم الناس وابخلهم . . . وليس في الارض صناعة مذكورة ولا ادب شريف ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب. . . وهي قتّالة للغرباء. كثرت (=)

قصرت قصبة الاهواز عن توليده وتلقيحه ! ومن اقام بالاهواز حولا فتفقّد عقله ذو فراسة، وجد النقصان فيه بيّنا ."(١)

ومما انتقده الجاحظ ايضا في اهل الاهواز صعوبة لغتهم لكثرة مخارج حروفهم :

" واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها، على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها . . . وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها وثقلها وتعقّدها في انفسها، كفرق ما بين الزنجي والخوزي. فان الرجل يتنخّس في بيع الزنج وابتياعهم شهرا واحدا فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز، ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل . . . والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم، وليس ذلك في شيء، اكثر منه في لغة الخوز. وفي سواحل البحر من اسياف فارس ناس كثير كلامهم يشبه الصفير. . . ."(٢)

بذلك نكون عرضنا آراء الجاحظ في مناقب الفرس ومثالبها .

(=) بسوقها الافاعي، وفي جبلها الطاعن في منازلها، المطل عليها، والجرارات في بيوتها ومنازلها ومقابرها . ومن بليّتها ان من ورائها سباخا ومناقع مياه غليظة . فاذا التق عليهم ما انجر من تلك السباخ وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء، وفسد بفساده كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء . وسكرها جيد وثمرها كثير لا بأس به، وكل طيب يحمل الى الاهواز فانه يستحيل وتذهب رائحته ويبطل حتى لا ينتفع به . انظر : ياقوت الرومي الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٥) ، ج ١ : ٢٨٥-٢٨٦ .

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ع : ١٤١-١٤٢ ، وص ١٣٥ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٢٨٩ و البيان والتبيين ، ١ : ٣٤ . وينافي هذا القول، ما نسبه الجاحظ الى الشعوبية في سهولة لغة اهل فارس واهل مرو واهل قصبة الاهواز. انظر : البيان والتبيين ، ٣ : ١٣ .

الفصل الرابع

الروم

مناقب الروم :

عدّ الجاحظ الروم من الامم المعتبرة "التي فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم"(1) وقد لخّص مناقبها بقوله :

". . . ثم ملنا الى الروم فوجدناهم اطباء وحكماء ومنجّمين ولهم اصول اللحون وصنعة القرسطون وكيان الكتب ، وهم الغايات في التصوير ، يصور مصوّرهم الانسان حتى لا يغادر شيئا ،ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره شابا وان شاء كهلا وان شاء شيخا ،ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره باكيا او ضاحكا ،ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلا ناعما عتيقا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل وبين المبتسم والمستعبر وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ وضحك المتهدّد ،فيركب صورة في صورة وصورة في صورة وصورة في صورة. ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم ومن الخرط والنجر والصناعة ما ليس لسواهم. ثم هم مع ذلك اصحاب كتاب وملة. ولهم بعد في الجمال والحساب والقضاء في النجوم والخط والنجدة والرأى وانواع المكيدة مالا ينكر ولا يجحد ."(2)

ومن مناقب الروم ايضا فضيلة الحنين الى الاوطان . وقد دلّ الجاحظ على ذلك بقوله في ملك الروم ءالاسكندر :

" وكان الاسكندر الرومي جال في البلدان واخرب اقليم بابل وكَنَزَ الكنوز. . . فمرض بحضرة بابل ،فلما اشفى اوصى الى حكمائه ووزرائه ان تحمل رمّته في تابوت من ذهب، الى بلده ،حبّا للوطن . . . فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ،حنّوا الى اوطانهم

---

(1) الجاحظ ، البيان ، 1 : 137 و384 .
(2) الجاحظ ،"كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص 98- 99 .

ولم يؤثروا على تربهم ومساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم المستفادة بالتغازى والمدن المغتصبة من ملوك الامم ."(١)

ويبدو للدارس ندرة في ذكر اسماء ملوك الروم ، الذين يتمتعون بالمناقب والمحاسن ، كما فعل الجاحظ في كلامه في ملوك الفرس ، ولعل ذلك مرده الى عدم المام الجاحظ باللغة الرومية وبتاريخ الروم فضلا عن حالة الحرب بين العرب والروم. وباستثناء ملاحظة الجاحظ السابقة في الاسكندر لا نعثر سوى على النص التالي الذى يعكس اعجاب الجاحظ بما لدى "ملك الروم" من دراية في الحرب. قال :

" قال ابو الحسن عن سلمة بن خطاب الازدى : قال : لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير ، اجتمع وجوه الروم الى ملكهم فقالوا له : قد امكنتك الفرصة من العرب ،بتشاغل بعضهم مع بعض ، لوقوع بأسهم بينهم . فالرأى لك ان تغزوهم الى بلادهم فانك ان فعلت ذلك بهم نلت حاجتك ،فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم فيجتمعوا عليك. فنهاهم عن ذلك وخطّأ رأيهم ،فأبوا عليه الا ان يغزوا العرب في بلادهم. فلما رأى ذلك منهم امر بكلبين فحرّش بينهما ، فاقتتلا قتالا شديدا ،ثم دعا بثعلب فخلّاه ،فلما رأى الكلبان الثعلب، تركا ما كانا فيه ،واقبلا عليه حتى قتلاه ،فقال ملك الروم : كيف ترون ؟ هكذا العرب ، تقتتل بينها ،فاذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا ، فعرفوا صدقه ،ورجعوا عن رأيهم ."(٢)

كما اشاد الجاحظ بالزبّاء الرومية"(٣) التي استوحت فكرة الانفاق من تدبير اليرابيع . وكذلك كان شأن قومها ،يحاكون اليرابيع بغرض الاحتيال في حروبهم

---

(١) الملاحظ ان الروم في ادب الجاحظ هم غير اليونان ،راجع البيان ،١ : ٨٨ ورسالة" الرد على النصارى"، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ ، والنص المذكور عن الاسكندر من" رسالة في الحنين الى الاوطان" ،المصدر نفسه ، ٢ : ٤٠٩ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٧٢-١٧٣ .

(٣) ويرى المحقق عبد السلام هارون ان اغلب القول انها عربية . انظر كتاب الحيوان ٥ : ٢٧٨ ، وكذلك المستشرق شارل بلا ،الذى رأى انها زنوبيا التي ملكت تدمر ،بين ٢٦٧و٢٧٢ للميلاد . راجع كتاب التربيع والتدوير، تحقيق بلا ، الفقرة ٦٣ ص ٣٧ .

على اعدائهم ، " بالانفاق والمطامير والمخارق"(١) . ومن جهة ثانية ، صوّر الجاحظ اعتماد الروم على الخنازير للاستدلال على الوقت. قال :

"... ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وببكورها وغدوّها واصواتها ، ولذلك قالوا في وصف الرجل : له وثبة الاسد ، وروغان الثعلب ، وانسلاب الذئب ، وجمع الذرّة ، وبكور الخنزير ...."(٢)

كما لاحظ الجاحظ ان سبي رجال الروم يصلحون لتربية الابل مع العلم ان في دخول الابل بلاد الروم، هلاكها . قال :

" واصحاب الابل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للابل ، يرون انهم يصلحون على معايشها ، وتصلح على قيامهم عليها . ومن العجب ان رجال الروم تصلح في البدو مع الابل ، ودخول الابل بلاد الروم هو هلاكها ."(٣)

وقد اعجب الجاحظ بالاعتناء بالزى عند ملوك العجم - الذين يشملون الروم- لما في الاعتناء من تقوية لمعنى السلطان ، في نفوس العامة الذى لولاه " لاكل الناس بعضهم بعضا ، كما انه لولا السميم لوثب السباع على" السوام"(٤) . قال :

"... ولذلك وضعت ملوك العجم على رؤوسها التيجان وجلست على الاسرّة ، وظاهرت بين الفرش . وهل يملأ عيون الاعداء ويرعب قلوب المخالفين ويحشو صدور العوام الا تعظيم شأن السلطان والزيادة في الاقدار ، والا الآلات . وهل دواؤهم الا في التهويل عليهم؟ وهل تصلحهم الا اخافتك اياهم؟ ...."(٥)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٢٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ٢ : ٢٩٤ . وقارن ايضا بالمصدر نفسه ، ٢ : ٣٥٣-٣٥٤ وص ٦٨ من الرسالة .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .
(٤) الجاحظ ، " رسالة في المعلمين" ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٤٥ .
(٥) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ١١٥ .

تندرج مثالب الروم الدينية في مفهوم الجاحظ نموذجا تطبيقيا آخر،لمفهومه في تفاوت حال الامم المعتبرة في الدنيا وحالها في الدين. قال :

" ان الناس يخصّون الدين من فاحش الخطأ وقبيح المقال بمــا لا يخصّون به سواه من جميع العلوم والآراء والآداب والصناعات. ان الفلاح والصانع والنجار والمهندس والمصور والكاتب والحاسب من كل امة وملة، لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا من فاحش الخطأ وافراط النقص كالذى تجده في اديانهم وفي عقولهم عند اختيار الاديان ؛ والدليل على ما وصفت لك ان الامم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات اربع : العرب والهند والروم والفرس ؛ ومتى نقلتهم من الدنيا الى علم الدين، حسبت عقولهم مختبلة وفطرهم مسترقة. . . . "(١)

اما ما وجده الجاحظ في الروم فقد افرد له رسالة خاصة (٢)لخصها بعرض مفهومهم لعيسى عليه السلام الذى يضاد مفهوم الاسلام له. قال :

" ثم هم مع ذلك اجمع، يرون ان الآلهة ثلاثة : بطن اثنان ، وظهر واحد ،كما لا بد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء ،فكذلك جوهر الآلهـة. فزعموا ان مخلوقا استحال خالقا ،وان عبدا تحوّل ربّا وان حديثا انقلب قديما ، الا انه قتل وصلب بعد هذا وفقد وجعل على راسه اكليل الشوك ثم احيا نفسه بعد موته وانما امكن عبيده من اخذه واسره وسلّطهم على قتله وصلبه ليوءاسي ابناءه بنفسه وليحبب اليهم التشبه به ،وليستصغروا جميــع ما صنع بهم ولئلا يعجبوا باعمالهم فيستكثروها لربّهم. فكان عذرهم اعظـم من جرمهم ,فلولا انّا رأينا باعيننا وسمعنا بآذاننا لما صدّقنا ولا قبلنـــا ان قوما متكلمين واطباء ومنجّمين ودهاة وحسّابا وكتبة وحذاق كل صنعـة يقولون في انسان رأوه يأكل ويشرب ويبول وينجو ويجوع ويعطش ويكتسي ويعرى ويزيد وينقص ،ثم يقتل بزعمهم ويصلب ،انه رب خالق واله رازق ، وانه قديم غير محدث يميت الاحياء ويحيي الموتى. . . "(٣)

---

(١) الجاحظ ،" كتاب الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩١ .

(٢) هي " رسالة الرد على النصارى"، رسائل الجاحظ ،ج ٣ .

(٣) الجاحظ ،" كتاب الاخبار وكيف تصح" ،ص ٩٩- ١٠٠ .

ومما اخذه الجاحظ في الروم ان شأنها في القتال اثر التديّن لم يعد كما كان قبله .

"... انّا قد علمنا ان الروم قبل التديّن بالنصرانية ،كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالا ،(١) فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال ،والقود والقصاص ،اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفا . ولمّا خامرت طبائعهم تلك الديانة ،وسرت في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ،خرجوا من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين ."(٢)

كما اخذ الجاحظ على الروم انها اول من ابتدع الخصاء مع ما في الخصي من اخلاق مذمومة :

" ومما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم انهم اصحاب الخصاء من بين جميع الامم ، والخصاء اشد المثلة ، واعظم ما ركب به انسان . ثم يفعلون ذلك باطفال لا ذنب لهم ،ولا دفع عندهم . ولا نعرف قوما يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا ،الا ببلاد الروم والحبشة ،وهم في غيرهما قليل ،واقل قليل (٣) ... ومن اهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العبادة ، ويجعله سادنا ،كصنيع الروم ... وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من قبل الروم ... ويعرض للخصي الشره عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شيء وذلك من اخلاق الصبيان ثم النساء ... ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضى ... وحب النميمة وضيق الصدر بما اودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء..."(٤)

---

(١) انظر : اشارة ثانية لهذا المعنى في "رسالة في حجج النبوه" ،رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٦٨

(٢) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٦ . وقد تراجع الجاحظ عن هذا الرأي في امة الروم حين قارنها بقبيلة التغزغز التركية . انظر : كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل پلا ،ص ٧٧ حيث يقول" صحيح ان ليس في دين الروم القتال ،ولكنها لا تسترقّ ولا تسلب ".

(٣) اى لدى الصقالبة والسودان (الحبشان والنوبة والسند) . راجع الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٩ .

(٤) الجاحظ ، "كتاب الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٢-٣٢٣ ، وكتاب الحيوان ، ١ : ١٢٤و١٣٥ .

وقد رأى الجاحظ ان عادات الروم في زخرفة بيوت العبادة والانفاق عليها "مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع"(١). وقد اخذ الجاحظ عليهم ايضا نشاطهم في نشر الزندقة وذم العرب (٢) في المجتمع العباسي ، وانهم كانوا السبب في افساد الفكر اليوناني . (٣)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٥٦

(٢) انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٤٤٧ - ٤٤٨ و"كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٣) انظر "كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ ومقالة طريف خالدي في :
Ṭarīf Khālidī, "A Mosquito's wing: Al-Jāḥiẓ on the Progress of Knowledge," in Arabic and Islamic Garland. (London: Islamic Cultural Center, 1977) p. 142.

الفصل الخامس

الترك

مناقب الترك

اشرنا في هذه الرسالة خلال دراسة رأى الجاحظ في الفرس الى ان لفظ الخراسانية يدل على الترك والعرب والفرس ، الموجودين في ذلك الاقليم. وان في قول الجاحظ المذكور " دولة بني العباس عجمية خراسانية" (1) اعترافا بفضل هذه الفئات الثلاث في قيام الدولة العباسية . واما فضل الترك في هذا الشأن فقد دفع الجاحظ الى خط رسالة كاملة سمّاها " رسالة في مناقب الترك" اكد فيها على ان الترك اصدقاء العرب ومواليهم المسخرون لنصرة الخلافة ، في محاولة منه لتجاوز واقع التنافر الذى دبّ بين جند الخلافة حول فضلهم في قيامها . في سبيل ذلك ، استعمل الجاحظ معلوماته الدينية لترسيخ ولاء الترك للعرب الذين جمعوا بين النسب المعنوى الممنوح لهم بالولاء ، تحقيقا لقول الرسول" الولاء لحمة كلحمة النسب " (2) وبين النسب الفعلي الواقع بالمصاهرة :

> " . . . والسنة قد نقلت الموالي الى العرب في كثير من المعاني ، لانهم عرب في المدّعى ، والعاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله : مولى القوم منهم . . . فقد شاركوا العرب في انسابهم والموالي في اسبابهم ، وفضلوهم بهذا الفضل الخاص الذى لا يبلغه فضل . . . . " (3)

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٣٦٦ .

(2) اخرج الحديث الحاكم والبيهقي عن ابن عمر وتتمته " لا يباع ولا يوهب" انظر : السيوطي ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، (بيروت : المكتب الاسلامي ، ١٩٧٩) المجلد ٦ ص ١١٧ .

(3) ويروى" من انفسهم : اخرجه البخارى عن انس. المصدر السابق ، ص ٣٧٦ . انظر : الجاحظ ،"رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ١٧١-١٧٢ . والذين شاركوا العرب وفضلوهم هم الترك .

ويؤيد ذلك ان كثيرا من امهات الخلفاء العباسيين هنّ من الجوارى الاتراك(١) ، اى ان ولاء الترك لم يكن ولاء هامشيا لقبيلة مغمورة من قبائل العرب وانما كان ولاء "للباب قريش ولمصاص عبد مناف ،وهم في سر بني هاشم ، وهاشم موضع العذار من خدّ الفرس والعقد من لبة الكاعب"(٢) . ويستطيع الدارس لآراء الجاحظ في الترك فهم جميع اقواله فيهم في ضوء هذا الفصل السياسي المذكور ،وهو فصل يعكس توجه الدولة العباسية المتفتح نحو الاسم الذى يتجاوز دائرة الولاء الجنسي العربي الى دائره الولاء الديني والعسكرى (٣) . ولذلك نجد ان الجاحظ بعدما فرغ من تأكيد الولاء الديني للترك ،بذل جهده في تقصي المناقب الحربية التي تحلّى بها الترك ، واظهارها للوصول الى انهم ليسوا اقل شأنا من بقية المقاتلة .

رأى الجاحظ ان الترك قوم انتظموا جميع معاني الفروسية والحرب وانهم استأثروا بجماع خصال التفوق العسكرى (٤) بفضل تمتعهم بقوة الابدان وقوة الانفس. قال الجاحظ في ذلك :

"... والترك قوم يشتد عليهم الحصر والجثوم ،وطول اللبث والمكث ، وقلة التصرف والتحرك ،واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ،وليس للسكون

---

(١) انظر : زكريا كتابجي ، الترك في مؤلفات الجاحظ ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢) ص ١٧١ - ١٨٤ وانظر ايضا : مليحة رحمة الله ،الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (بغداد : مطبعة الزهراء ، ١٩٧٠) ص ١٤ .

(٢) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك ،" رسائل الجاحظ ،٣ : ١٧١ .

(٣) حول مفهوم الجاحظ لسياسة العباسيين الاممية الشاملة ،راجع : فاروق عمر ، طبيعه الدعوة العباسية ، (بيروت : دار الارشاد للطباعة ،) ص ٢٧٩ .

(٤) ويرى المستشرق فرانز روزنتال ان الترك في نظر الجاحظ يشبهون العرب في القوة الحربية والقيافة . راجع :

Franz Rosenthal, The Technique and Approach of Muslem Scholarship, (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p.72.

فيها نصيب ،وفي قوى انفسهم فضل على قوى ابدانهم ،وهم اصحاب توقّد وحرارة ، واشتغال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ،سريع لحظهم ، وكانوا يرون الكفاية معجزة وطول المقام بلادة ،والراحة عقلة ،والقناعة من قصر الهمة ،وان ترك الغزو يورث الذلة ."(١)

ويذكر الجاحظ تفاصيل اخرى عن الشخصية التركية المحاربة تؤكد ما اشرنا اليه من انتظامها جميع معاني الفروسية ، كصدق الشدة والانطلاقة المندفعة والصبر على العدو السريع ومواصلة السفر والرماية على ظهور الخيل في الحرب والحذاقة في معالجة الفرس (٢)الى حد انه" لو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على ظهر خيله اكثر من جلوسه على ظهر الارض ."(٣) فاستحق التركي في رأى الجاحظ ان يكون" امة على حدة" ،(٤) فيه جماع خصال التفوّق العسكري ، لانه اشد ما يحب الحركة والانطلاق ،مع قوة في التحمل ، وقدرة ذاتية على تجدد النشاط ، اثر ما يتوقعان يوهنه لدى سائر المقاتلة . وقدعبر الجاحظ عن هذه الخاصة في الترك ،بقوله الذى يعكس انه عاينها بنفسه :

". . . الذى يوجد عند الاتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله وبعض النهار ،فان الناس في ذلك الوقت ليس لهم الا ان يتمددوا ويقيدوا دوابهم . والتركي في ذلك الوقت اذا عاين ظبيا او بعض الصيد ابتدأ بالركض بمثل نشاطه قبل ان يسير ذلك السير . . . وترى التركي في تلك الحال ، وقد سار ضعف ما ساروا : يرى بقرب المنزل عيرا او ظبيا ،او عرض له ثعلب او ارنب ، كيف يركض ركض مبتدئ مستأنف حتى كأن الذى سار ذلك السير ،وتعب ذلك التعب غيره . . . وانا اخبرك اني قد رأيت منهم شيئا عجيبا وامرا غريبا : رأيت في بعض غزوات المأمون سماطي خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل ،مائة فارس من الاتراك في الجانب الايمن ومائة من سائر الناس في الجانب الايسر ،واذا هم

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك " ،رسائل الجاحظ ،١ : ٦٥ .
(٢) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك " ،رسائل الجاحظ ،٣ : ٢٠٢ - ٢٠٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٦ .
(٤) لان التركي هو الراعي والسائس والرائض والنخاس وهو البيطار وهو الفارس ،راجع: المصدر نفسه ،٣ : ٢٠٧ .

قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون ،وقد انتصف النهار واشتد الحر . فورد عليهم وجميع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او اربعة ، وجميع تلك الاخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الارض الا ثلاثة او اربعة. فقلت لصاحب لي : انظر اى شيء اتفق لنا . اشهد ان المعتصم كان اعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم ."(١)

كما عبّر عن خصائصهم النفسية حين ذكر ان الوحدة الفكرية وسرعة البداهة تربطان بين قلوبهم جميعا على هدف تنظيمي واحد :

" . . . والاتراك اذا صافّوا جيشا ان كان في القوم موضع عورة ،فكلهم قد ابصرها وعرفها ،وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع،وكان الرأى الانصراف،فكلهم قد رأى ذلك الرأى وعرف الصواب فيه . وخواطرهم

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ،٣٠ : ١٦١ و"رسالة في مناقب الترك "، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وج ١ : ٦١-٦٢ . ويشير الجاحظ بذلك الى استقدام المعتصم الترك باعداد كبيرة الى سامراء سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، وذلك لضيق بغداد على عسكره. انظر : احمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٤) ، ج ٤ : ٤٩ . ويرى كاتب مادة سامراء في دائرة المعارف الاسلامية ان المعتصم بنى سامراء (بين تكريت وبغداد) خوفا من ثورات جنوده الترك المستأجرين للخدمة في الجيش العباسي . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition s.v."Samarra," by H. Violett.

وكذلك قال المستشرق وليام موير ان المجتمع البغدادى لم يتحمل وجود الاتراك ولذلك بنى المعتصم سامراء التي تبعد ستين ميلا الى الشمال من بغداد ، والتي استمرت عاصمة الخلافة من ٨٣٦ - ٨٩٤ م وذلك لسبعة خلفاء من بعده ، كانوا يقعون يوما بعد يوم في قبضة من استقدموهم لنصرتهم . راجع:

William Muir, The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall. (Edinburgh, 1915), p. 512-513.

واحدة ، ودواعيهم مستوية باقبالهم معا . وليس هم اصحاب تأويلات ولا اصحاب تفاخر وتناشد ، وانما شأنهم احكام امرهم ، فالاختلاف يقل بينهم ."(١)

وغير خفي ان الجاحظ من خلال تزكية الترك يهدف الى تشجيع مستشارى الدولة العباسية على اختيار هذا الصنف المتجاوب في قوته وبساطته لخدمة الخلافة العباسية . قال :

" والاتراك قوم لا يعرفون الملق ولا الخلابة ، ولا النفاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا النميمة ، ولا الرياء ، ولا البذخ على الاولياء ، ولا البغي على الخلطاء ، ولا يعرفون البدع ، ولم تفسدهم الاهواء . . . ."(٢)

ومناقب الترك المذكورة ترجع الى كونهم" اصحاب عمد وسكان فياف وارباب مواش وهم اعراب العجم كما ان هذيلا اكراد العرب ". (٣) ومع ان الترك والخوارج بدويو الاصل ، فان الكفاءة البدنية الحربية للترك فاقت كفاءة الخوارج القتالية ، مضرب المثل في القوة آنذاك . اى ان بداوة الترك تفوقت على بداوة الخوارج لان الاغراق في البداوة مدعاة للتفوق والنصر والغلبة (٤) . وقد عبر الجاحظ عن ذلك بلسان احد امراء الدولة العباسية ممن حضر مجلس رسول الخليفة المأمون ، بعد ان طرح الرسول سؤالا على القادة العسكريين : ايحبون ان يلقوا مئة تركي او مئة خارجي في حال مواجهة قتالية ، فانفرد الامير بقوله :

---

(١) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧٠ - ٧١ .

(٤) من الممكن ان يكون ابن خلدون قد تأثر بهذه المقولة وهي واضحة في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، (القاهرة : بولاق ، ١٢٨٤) ج ١ حين ذكر ان الامم البدوية مهيأة لغلبة غيرها لانها مشبعة بالشجاعة والقوة التي توفرها البداوة . قال ابن خلدون : " وكذلك كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصبا دون الحي الآخر ، فان الحي المبتدى يكون اغلب له واقدر عليه اذا تكافآ في القوة والعدد ، سنة الله في خلقه" فالبداوة في نظره سبب في النصر . راجع فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر ص ١٠٥ وان الامم الوحشية اقدر على التغلب ، ص ١١٥ - ١١٦ .

> "... بل ألقى مائة خارجي احب اليّ ، لاني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها تامة في التركي ، ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة ... ثم بان التركي من الخارجي بامور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلّق ....."(١)

وقد عبر الجاحظ عن التصاق مفهوم قادة الترك للقوة بما هو ماثل امامهم في عالم الحيوان والبادية :

> "... كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة : لابد ان تكون فيه عشر خصال من اخلاق الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الاسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وختل الذئب ، وصبر الكلب على الجراحة ، وحذر الغراب ، وحراسة الكركي ، وهداية الحمام ."(٢)

وقد تقصّى الجاحظ علّة تفوق التركي واندفاعه في القتال ، فوجد ان للتركي شجاعة ونجدة ذاتية مستقلة عن العوامل والدوافع التي تثير نجدة المقاتل العربي وتحمله ، حتى اذا عرضت له تلك العوامل كانت نجدته مضاعفة وقتاله اشد :

> " قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ، ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ، ولا على حمية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وانما يقاتل على السلب والخيار في يده .... فما ظنك بمن هذه صفته ان لو اضطره احراج او غيرة او غضب او تديّن ، او عرض له بعض ما يصحب المقاتل المحامي من العلل والاسباب ؟ ."(٣)

وقد بلغ اعجاب الجاحظ بهذه الامة ان اضاف لها من المناقب التي كان قد نسبها من قبل الى العرب واليونان والصين . وهو امر لم نعهده في مواقف الجاحظ التي

---

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٤١ .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٣٥٣ - ٣٥٤ .
(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٢ .

تميل الى جعل كل امة مخصوصة بلون حضارى معيّن . والجديد هنا ان الجاحظ لم يحكم للترك بذلك على سبيل الاطلاق ، وانما قال ان ذلك مرتبط وممكن لو كان في بلادهم انبياء وحكماء . قال :

" . . . ولو كان في شقهم انبياء وفي ارضهم حكماء وكانت هذه الخواطر قد مرّت على قلوبهم وقرعت اسماعهم ،لأنسوك ادب البصريين وحكمة اليونانيين وصنعة اهل الصين ." (١)

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا ان الترك من بين جميع الامم العجمية تأتي في نظر الجاحظ في المرتبة الاجتماعية بعد العرب او مع العرب نظرا لتمتعهما بهذه الخصائص . ولولا النص المذكور اعلاه الذى لحظ فيه الجاحظ امكان الترك النفسي في مشاركة الامم المعتبرة مناقبها ،لكنّا قلنا ان الجاحظ لم يلحظ في الترك سوى خصيصة الفروسية ومعاني الحرب . ولكن الجاحظ ما يلبث ان يعود الى موقفه في اختصاص الامم ، فيقرر ان الترك وان كانت مسخرة لانتظام معاني الحرب فان هذا التفوق في منزلة تفوّق سائر الامم المعتبرة في الخصلة الاغلب على كل منها . قال :

" . . . ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ،ومقارعة الابطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها ،وموصولة بها ، احكموا ذلك الامر باسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم . فلما كانوا كذلك ، صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، واهل الصين في الصناعات ،والاعراب فيما عدّدنا ونزّلنا ،وكآل ساسان في الملك والرياسة ." (٢)

وكعادة الجاحظ في نسبة الفضائل الى الله ، رأى الجاحظ ان الترك ما كانت لتبلغ هذه المنزلة من الفضل في الحروب لو لم يسخّرها الله لذلك المعنى بالاسباب

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك " ،رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٦٠ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك ،" رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٧١ .

ويقصرها عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتحقق تلك المعاني ،كاتصافهم بالحلم والعلم والحزم والصبر والكتمان والخبرة بالرجال والبلاد . قال :

" ثم اعلم ان كل امه وقرن وكل جيل وبني اب وجدتهم قدبرعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان ،او فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ،وفي البصر بالحرب ، فانك لاتجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ،الا ان يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ،وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ،وتصلح لتلك المعاني ؛ . . . وهي معان تشتمل على مذاهب غريبة وخصال عجيبة . فمنها : ما يقضى لاهله بالكرم وببعد الهمّة وطلب الغاية ، ومنها ما يدل على الادب السديد والرأي الاصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة . الا ترى انه ليس بد لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولابد من البصر بالخيل والسلاح والخبرة بالرجال والبلاد والعلم بالمكان والزمان والمكايد ،وبما فيه صلاح هذه الامور كلها ."(١)

وقد ارفق الجاحظ ملاحظاته في الترك باستدراك مفاده ان اخلاق الترك ليست واقعا نفسيا يصدق على جميعهم وانما هو الاغلب عليهم والاظهر(٢).

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧ و ٧٣ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ،ص ٧٣ .

انسجاما مع مقولة الجاحظ التي ترى ان " لكل امة نصيبا من النقص ومقـدارا من الذنوب . . . وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوى" (١) ، فان التـرك ايضا لم تسلم من النقد " لان الاشتمال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوى دقيقها وجليلها وظاهرها وخفيّها ، فهذا لا يعرف." (٢) وقد حشد الجاحظ عيـوب الترك بقوله :

" . . . والذى يوحش منهم ، الحنين الى الاوطان ،وحب التقلب فـي البلدان ،والصبابة بالغارات ،والشغف بالنهب ،وشدّة الالف للعـادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكثرتـه ، وملاعبهم في تلك الصحارى ،وترددهم في تلك المروج ،والا يذهب بطـول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ،ويصير حدهم على طول الايام كليلا ." (٣)

والملاحظ ان الجاحظ في عرض مآخذه على الترك قد سلك مسلكا تعليليا ـ ان لم يكن متعاطفا ،مع هذا الجنس الحيوى للخلافة العباسية . اما بالنسبة الى حب تقلبهم في البلدان والصبابة بالغارات ، فقد ردّهما الجاحظ الى نزعتهم الحركية الغالبة عليهم :

" ومن حذق شيئا لم يصبر عنه ومن كره امرا فر منه . . . ذلك ان التـرك قوم يشتد عليهم الحصر والجثوم ،وطول اللبث والمكث ،وقلة التصـرف والتحرك ،واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون فيهـا نصيب. . . ." (٤)

واما خصلة الحنين الى الوطن فقد ردّها الجاحظ الى شدة مناسبة تركيبهـم وبنيانهم للبيئة الجغرافية والاجتماعية في وطنهم قال :

" وانما خصوا بالحنين من بين جميع العجم لان في تركيبهم واخـتلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ،ومشاكلة مياههم ومناسبة اخوانهم ،

(١) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك" ،رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٣٧ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه ،ص ٦٢ - ٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ،ص ٦٣و٦٥ .

ما ليس مع احد سواهم . الا ترى انك ترى البصرى فلا تدرى أبصرى هو ام كوفي . . . وانت لا تغلط في التركي ،ولا تحتاج فيه الى قيافة ولا الى فراسة ، ونساؤهم كرجالهم ،ود وابهم تركية مثلهم(1). . . ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس . . . ولكن ذاك في الترك اغلب ،وفيهما ارسخ ،لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة ،واستواء الشبه وتكافي التركيب . . . ."(٢)

كما ان جهل قادة الترك باقدارهم ، وعدم انزالهم المنزل اللائق بهم في فئة المقاتلة ،ضاعف من حنينهم الى بلدهم وكرّه عندهم المقام :

" ومن اعظم ما كان يدعو الترك الى الشرود ويبعثهم على الرجوع ،ويكرّه عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوّادهم باقدارهم ،وقلة معرفتهم باخطارهم ،واغفالهم موضع الانتفاع بهم ، . . . ولم يقنعوا ان يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة ،ومن عرض العساكر ،وانفوا من ذلك لانفسهم ،ورأوا ان الضيم لا يليق بهم ، وان الخمول لا يجوز عليهم...."(٣)

بيد ان الجاحظ سرعان ما استدرك بقوله ان خصلة الحنين الى الوطن لم تستمر في التأجج في نفوس الترك بعد ان" صادفوا ملكا حكيما ،وباقدار الناس عليما ،لا يميل الى سوء عادة ولا يجنح الى هوى ولا يتعصب لبلد على بلد ،يدور مع التدبير حيثما دار ويقيم مع الحق حيثما اقام". (٤)اذ ذاك تغلبوا على اشواقهم وعاداتهم" واقاموا اقامة من قد منح الحظ ودان بالحق ونبذ العادة وآثر الحقيقة ، ورحل نفسه

---

(١) وقد ذكر الجاحظ ذلك في"كتاب البغال" ،"رسائل الجاحظ ،حيث صرح انه دخل بلاد الترك ووجد كل شيء فيها تركيا . راجع "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣١٣ ؛

(٢) الجاحظ ،"رسالة في مناقب الترك" ،رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٣و٦٤.

(٣) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك " ،رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٦٦ .

(٤) المصدر نفسه . ولعل الجاحظ يقصد بذلك الخليفة المتوكل التركي الام . والجدير بالذكر ان الرسالة هذه كانت في الاساس موجهة الى الخليفة المعتصم لكنها لم تصل اليه" لاسباب يطول شرحها" ص ٣٦ من الرسالة المذكورة . وقد فسرها زكريا كتابجي بعامل خوف الجاحظ ممن كان حول المعتصم من المتعصبين للقومية =

لقطيعة وطنه وآثر الاقامة على ملك الجبرية واختار الصواب على الالف ". (١)

وقد اخذ الجاحظ على الاتراك الضعف الذى اعترى احدى قبائلها وهي التغزغز(٢) ، وهو ضعف اصابها في شجاعتها وشهامتها اثر تدينها بالزندقة مماثلا لما اصاب الروم اثر تدينها بالنصرانية . قال :

" ... والى مثل ذلك صارت حال التغزغز من الترك ، بعد ان كانوا انجادهم وحماتهم وكانوا يتقدمون الخرلخية(٣) ، وان كانوا في العدد

(=) العربية والحاقدين على الترك مما دفع الجاحظ بالانتظار الى حين تبلغ سطوة الترك اوجها وكان ذلك في عهد المتوكل . انظر الترك في مؤلفات الجاحظ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ .

(٢و٣) التغزغز والخرلخية قبيلتان من اصل تركي مجاورتان للبلاد الاسلامية ، اى في منطقة ما وراء النهر ، وكانتا تتكلمان لغة واحدة . وكان على من يريد الوصول الى بلاد الصين ، المرور ببلاد التغزغز والخرلخية او القرلق . وذلك انطلاقا من فرغانة ، التي تقع شمال نهر سرداريا في مدة شهر للوصول الى بلاد القرلق فالتغزغز . وتستغرق الرحلة منهما الى الصين مدة شهرين . راجع :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Turks," by W. Barthold
Encyclopaedia of Islam, old. ed., s.v. "Toghuzghuz," by W. Barthold.

ويرى صالح احمد العلي في تحقيقه لرسالة الجاحظ " الاوطان والبلدان " ان الخرلخية هو الاسم الذى اطلقه العرب على قبيلة قارلوق التركية التي كانت تسكن اراضي شاسعة شرقي فرغانة . واما التغزغز فالاسم الذى اطلقه العرب على قبيلة طوغوزاوغوز اى التسعة اوغوز التركية التي سكنت الاراضي الواقعة في الشمال الغربي من مناطق الخرلخية وتمتد الى بلاد الصين . انظر احمد صالح العلي ، كتاب البلدان ، (بغداد : مطبعة الحكومة ، ١٩٧٠) مستل من مجلة كلية الآداب ، ص ٤٧ .

واما زكريا كتابجي فقد رأى ان الخرلخية كانوا عبيدا للتغزغز وعصوا عليهم وخرجوا الى بلاد التركشتية ، واستولوا عليهم وقهروا سلطانهم ومنها خرجوا الى بلاد الاسلام وهم تسع فرق ، في حين بقي الغز دونهم ثقافة . انظر ايضا :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Karluk," by C.E. Bosworth.

ورأى كتابجي ايضا ان التغزغز ليست الا قبيلة واحدة من اثنتي عشرة قبيلة تدعى بالغز او الغزية وهي من اكبر قبائل الاتراك التي تفرع السلاجقة والعثمانيون(=)

اضعافهم. فلما دانوا بالزندقة ـ ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ من دين النصارى ـ نقصت تلك الشجاعة ، وذهبت تلك الشهامة . . . حتى اعتراهم مثلما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفا . . وخرجوا من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين . "(١)

اى ان الجاحظ رأى ان الاتراك المستقدمين من وراء النهر لخدمة الخلافة لم يكونوا جميعا شجعانا وانه كان يعترى بعضهم الجبن كما تقدم .

(=) منها ، بيد انه لم يذكر الضعف الذى اشار اليه الجاحظ وانما قال اعتمادا على معجم البلدان لياقوت الحموى : " ليس في ملوك العالم اشد من رجال ملك التغزغز ، ولا اجرأ منه على سفك الدماء . " راجع : زكريا كتابجي ، الترك في مؤلفات الجاحظ ، ص ٣٠-٣٤ . وقد سمّى المؤلف الخرلخية بالخرلوخ ايضا . والجدير بالذكر ان الجاحظ نفسه حين كرر ماخذه على التغزغز في كتابه التربيع والتدوير (تحقيق شارل بلا) الفقرة ١٣٨ ، ص ٧٧- نفس ما ذكره عن الروم اعلاه ، وقال : " فما بال الروم تمنع ان تسترقّ وان تسلب وليس من دينهم قتال ولا جدال ولا مكافحة ولا دفع ؟ "

(١) الجاحظ ، " كتابه في الاوطان والبلدان " رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٦-١٢٧ .

الفصل الســـادس

============

الصيـــــن

=======

آراء الجاحظ في الصين :

رأى الجاحظ ان اهل الصين قد خصّوا من بين جميع الامم ،بالصناعـــات اليدوية قال :

" فاما سكان الصين فانهم اصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة، والاصباغ العجيبة ، واصحاب الخرط والنجر والتصاوير، والنسج والخط. ورفق الكفّ في كل شيء يتولونه ويعانونه ،وان اختلف جوهره ،وتباينـــت صنعته ، وتفاوت ثمنه ."(١)

وقال الجاحظ ان هذا الفضل مما فتحه الله على سكان ذلك الاقليم ، انسجاما مع نظرته التي ترى اختصاص امة ما يعود الى كونها مسخّرة من الله بعلل واسباب للوصول الى ذلك الواقع المميّز . قال :

". . . الا ترى ان اهل الصين والتبّت ،حذّاق الصناعات ، لها فيهـــا الرفق والحذق ، ولطف المداخل ،والاتساع في ذلك ، والغوص علـــى غامضه وبعيده ،وليس عندهم الا ذلك . فقد يفتح لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوى ذلك . . . ثم اعلم بعد ذلك كله ان كل امة وقـــرن وجيل وبني اب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس فـــي البيان ،او فاقوهم في الآداب ،او في تأسيس الملك . . . فانك لا تجدهـــم في الغاية وفي اقصى النهاية ،الا ان يكون الله تعالى قد سخّرهم لذلـك المعنى بالاسباب ،وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصـــلح لتلك المعاني . لان من كان متقسّم الهوى ،مشترك الرأي ،متشعـــب النفس ، غير موفّر على ذلك الشيء ،ولا مهيأ له ،لم يحذق من تلـــك

---

(١) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك" ،رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٥ - ٢١٦ . وفي رأى الجاحظ ان اهل الصين مقدمون على الروم في هذه الصناعات . راجـــع كتاب التربيع والتدوير ،تحقيق شارل يلا ، الفقرة ٦٤ ، الصفحة ٣٧ .

الاشياء شيئا باسره ،ولم يبلغ فيه غايته ،كأهل الصين في الصناعات، واليونانيين في الحكم والآداب . . . .»(١)

اى ان واقع الفضل لامة ما له وجهان : الوجه الالهي الذى يقسم ذلك الفضل فيفتح بابه لأمّة دون غيرها ،والوجه البشرى الذى يمثل الاستعداد النفسي الارادى القابل لذلك الحكم الالهي . ولكن باب الصناعات الذى فتح لليونان وللصين لم يلغ طابع الحكمة لدى اليونان على انه الاغلب عليهم في حين هو الطابع الوحيد الغالب على اهل الصين ، لانه في مفهوم الجاحظ لم يفتح لهم فضل غيره ، لان اهل اليونان مسخرة لتكون اهل حكمة ، واهل الصين مسخرة لتكون فعلة : قال :

". . . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل ؛ لان اولئك حكماء ،وهؤلاء فعلة ."(٢)

وقد استدرك الجاحظ على حكمه التعميمي الذى اطلقه في اختصاص اهل الصين بالصناعات حين ذكر ان ذلك لا يلزم جميعهم ان يكونوا فعلة وحذاقا بالصناعات ، ولكن ذلك هو الاغلب عليهم والاعم والاظهر :

" وليس في الارض كل تركي كما وصفنا ،كما انه ليس كل يوناني حكيما ، ولا كل صيني حاذقا . . . ولكن هذه الامور في هؤلاء اعم واتم ،وفيهم اظهر واكثر ."(٣)

وواضح من استدراك الجاحظ اعلاه انه ان كان ينطبق على الامم المعتبرة التي فتح امامها اكثر من فضل واحد، ثم غلب عليها فضل منها ، فان ذلك غير واضح مع الصين الذين لم يفتح امامهم سوى فضل واحد كما بيّن الجاحظ .

وتجدر الاشارة الى ان الجاحظ لم ينف مقولة السودان في معرض فخرها على البيضان ، ان اهل الصين يعدّون من السودان .(٤) كما ان الجاحظ اورد مقولة لسن

---

(١) الجاحظ ،كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٦ وايضا : رسالة في مناقب الترك ،رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢١٣-٢١٤ .

(٢) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك " ،رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢١٦ .

(٣) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك" ،رسائل الجاحظ ،ج ٣ : ٢١٩ .

(٤) الجاحظ ،" رسالة في فضل السودان على البيضان " ،رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٢١٦ .

دخل بلاد الصين من تجار التبّت ، مشيرا الى السرور الذى اعتراه طيلة مكوثه فيها . قال :

" ويزعم تجار التبّت ممن قد دخل الصين والزابج (١) وقلّب تلك الجزائر ونقّب في البلاد ان كل من اقام بقصبة تبّت ، اعتراه سرور لا يدرى ما سببه ولا يزال متبسما ضاحكا من غير عجب حتى يخرج منها . . "(٢)

وبعـــد ، فان الجاحظ لم يتناول اهل الصين بالنقد وذلك في جميـــع كتاباته التي وصلتنا .

---

(١) الزابج اسم جزيرة قرب الصين وهي تعرف اليوم بسومطره . ذكر المستشرق غابرييل فيراند في دائرة المعارف الاسلامية قول ابن خرّداذبه عنها وهو ان ملكا يدعـى اسحق بن عمران المتوفى ٩٠٧م كان يحكمها ويحكم " كله " وان جزيرة الزابـــج كانت مشهورة بالكافور . كما نقل المستشرق المذكور قول الادريسي (١١٥٤م) ان سكان جزر الزابج كانوا يأتون الى بلاد الزنج بواسطة السفن وان لغتهم كانـــت واحدة . وخطّأ المستشرق قول المسعودى ان جزر الزابج وكله وسرنداب (سيلان) كانت مملوكة من قبل المهراجا . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v."Zabag," by Gabriel Ferrand.

والجدير بالذكر ان الجاحظ عدّ الزابج في آخر اطواق العمران . انظـــر " رسالة في فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ . كما انه ذكرها في كتاب " التربيع والتدوير " بتحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ الصفحة ٣٧ . والزابج تلفظ بفتح الباء وكسرها ايضا .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٣٠ .

الفصل السابع

============

اليونان

======

مناقب اليونان

نسب الجاحظ الى اليونان معرفتها بالحكمة والصناعات . الا انه شدد على غلبة طابع الحكمة عليهم واكتفائهم في صناعتهم بكل ما شأنه ان يجعل الحياة سعيدة " فاستخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون جماما للنفس وراحة بعد الكد وسرورا يداوى قرح الهموم"(1). وتفسير غلبة طابع الحكمة عليهم في رأى الجاحظ ان اليونانيين كانوا " اصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة . . يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل . . فلم يكونوا تجارا ولا صنّاعا باكفّهم ولا اصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس ولا اصحاب جمع ومنع وحرص وكد"(2) اما انواع الصناعات فقد ذكرها الجاحظ بقوله :

" . . . وصنعوا من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقرصطونات،(3) والقبّانات ، والاسطرلابات(4) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا(5) ،

---

(1) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧و٦٨ .

(2) المصدر نفسه .

(3) القرصطون ضرب من القبان . انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨١ والجدير بالذكر انه نسب للروم هذه الصناعة . انظر" مقالة الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٨-٩٩ .

(4) الاسطرلاب او الاصطرلاب مقياس النجوم والكلمة مأخوذة عن اليونانية اصطرلابون واصطر هو النجم ولابون هو المرآة ؟ انظر الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق فان فلوتن (ليدن : بريل ، ١٩٦٨) ص ٢٣٢ . والكلمة نفسها تفيد عدة آلات تخدم امورا نظرية وعملية في علم الفلك وآلات لقياس خطوط الطول والعرض وآلات لقياس الوقت . ولكن الجاحظ اعلاه يقصد بها الآلة التي يعرف بها هيئة الفلك وصورة الكواكب ، دون سائر الآلات . ان كلمة اسطرلاب حين تستعمل مفردة يقصد بها المعنى المذكور ، اى الاسطرلاب المسطّح الذى يعرف بالعربية بذات الصفائح ؛ من الصفيحة او الآلة التي تشمل صفائح واسطوانات لمعرفة صورة الكواكب . راجع: Encyclopaedia of Islam, new edition, s.v. "Aṣṭurlāb," by W. Hartner.

(5) الكونيا هي اداة للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة . انظر : الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٢٥٥ .

وكالشيزان (١) ، والبركار (٢) ، وكأصناف المزامير والمعازف ،وكالطب والحساب والهندسة واللحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ،والعرّادات(٣)، والرتيلات ، والدبّابات(٤) ، وآلة النفّاط (٥) ، وغير ذلك مما يطول ذكره ."(٦)

وقد عدّ الجاحظ اليونان" اصحاب حكمة وفلسفة وصناعة منطق"(٧) مكتفيا بتسمية اهم حكماء اليونان وعلمائهم وكتبهم وبذكر بعض مقولات الحكمة لديهم. اما حكماء اليونان وكتبهم فقال فيها :

---

(١) لم اهتد الى معناها . وفي دائرة المعارف الاسلامية اشارة الى معبد شيز Shiz وهو غير مقصود اعلاه . وقد اخبرني الدكتور ماجد فخري ان الكلمة المذكورة تحتمل تحريفا لان لا وجود للشين في اليونانية ولعل الجاحظ يريد ζuyo'v (الكيسفون) وهي تعني النير ،آلة الفلاحة والحرث التي توضع على رأس الثور.

(٢) آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت احداهما وتدور حولها الاخرى ترسم بها الدوائر والاقواس . تسمى بالعامية" البرجل" وهي في الفارسية" بركار". انظر حاشية رقم ٦ ،" رسالة في مناقب الترك" ،رسائل الجاحظ ، تعليق عبد السلام هارون ،ج ١ : ٦٨ . والخوارزمي ، مفاتيح العلوم ،ص ٣٥٤ .

(٣) العرادة منجنيق صغير والمنجنيق من آلات الحروب ترمى بها الحجارة في القتال . انظر : مفاتيح العلوم، ٣٤٩ .

(٤) ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان ،١ : ٨٢ وقال المحقق هارون انها آلة تتخذ للحرب تدفع في اصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها وانظر الحاشية التالية .

(٥) الدبابات وآلة النفّاط او النفّاطات من الآلات المتحركة التي عرفت عند العرب بعلم الحيل . وكان يوضع في النفّاطة باب المدفع وباب السيف. انظر: مفاتيح العلوم ، ص ٣٥٤ . وآلة النفّاط هي غير النفّاطة ، اسم احدى النجوم السيارة . المصدر نفسه ، ٢١٣ .

(٦) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٦٨-٦٩ .

(٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ،٣ : ٢٧ - ٢٩ .

"... ان كتاب المنطق والكون والفساد ،وكتاب العلوى (١) ، وغير ذلك لارسطاطاليس ،وليس برومي ولا نصراني . وكتاب المجسطيّ لبطليموس وليس برومي ولا نصراني . وكتاب اقليدس (٢) لاقليدس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا . وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ،وهؤلاء اناس من امة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ... وقد علمنا ونحن على حداثة أسناننا وتقادم الناس قبلنا ، ان جالينوس قد كان بائنا في طبه وان الارسطاطاليس كان البائن في المنطق ."(٣)

ويعكس النص اعلاه تأكيد الجاحظ على الفرق بين امة اليونان وامة الروم. فالاولى امة بادت ولم يبق سوى آثار عقولها والثانية امة ذات ملك ورثت آثار اليونان الفكرية "لقرب الجوار وتداني الدار"(٤) . ولكن الجاحظ لا يقر بالفضل لامة الروم" التي حفظت تراث اليونان من الضياع ، ودفنت كتب اليونان في خزائنها دون ان تنتفع بها ،بل يدين بالفضل الى امة اليونان وان كانت قد انقرضت منذ عصور كثيرة ...."(٥)

---

(١) هو كتاب الآثار العلوية كما دعاه الجاحظ في كتاب الحيوان ٦ : ٢٨٠ وقد ترجمه يحيى بن عدى وهو يعرف بـ" De Meteorologica " اى العلم الذى يتعلق بشؤون الرعد والبرق والخسوف والكسوف والمد والجزر،انظر ابن النديم ، الفهرست (بيروت : مكتبة خياط ١٩٦٤) تحقيق غوستاف فلوجل ،ص ٢٥١ .

(٢) نسب الجاحظ لاقليدس وجالينوس وبطليموس " علوم الصناعات والارفاق والآلات" ايضا.راجع كتاب الحيوان ،١ : ٨٠ ولعل كتاب اقليدس هو كتاب النغم الذى يعرف بالموسيقى . انظر ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٦٦ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ،٣ : ٣١٤ .وكتاب العثمانية ، ص ٢٦٦ .

(٤) الجاحظ "كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ،٣ : ٣١٥ . وقد اشار الجاحظ الى اليونان ايضا في البيان والتبيين ،١ : ١٨٨ فقال انهم من الامم البائدة من العجم .

(٥) هذا الاستنتاج ردده المستشرق فرانز روزنتال في كتابه :
Technique and Approach of Muslem Scholarship, p. 72-73.
ومما يناقض هذا الاستنتاج ان الجاحظ في "كتابه الرد على النصارى" ،ج ٣ : ٣١٥ افاد بان الرومان تفاعلوا مع الفكر اليوناني حين اضافوا بعضه الى انفسهم(=)

اما مقولات الحكمة التي ذكرها الجاحظ لفلاسفة اليونان فقد وردت في معرض اشادته بنظام توريث العلم عند فلاسفة اليونان دون المال ، حيث يذكر ايضا مفهومهم لماهية الكتب النافعة ، التي طرحها ديمقراط :

"... وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين ، وتورث البنين الدين ... وكانت تقول لا تورثوا الابن من المال ، الا ما يكون عونا له على طلب المال ، واغذوه بحلاوة العلم ، واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم اغلب عليه من جمع المال ، وليرى انه العدّة والعتاد ، وانه اكرم مستفاد ... فخير ميراث ورّث كتب وعلم ... واما ديمقراط فانه قال : ينبغي ان يعرف انه لا بد من ان يكون لكل كتاب علم وضعه احد من الحكماء ، ثمانية اوجه : منها الهمة ، والمنفعة ، والنسبة ، والصحة ، والصنف ، والتأليف ، والاسناد ، والتدبير . فأولها ان تكون لصاحبه همة ، وان يكون فيما وضع منفعة ، وان يكون له نسبة ينسب اليها ، وان يكون صحيحا وان يكون على صنف من اصناف الكتب معروفا به ، وان يكون مؤتلفا من اجزاء خمسة ، وان يكون مسندا الى وجه من وجوه الحكمة ، وان يكون له تدبير موصوف . فذكر ان ابقراط قد جمع هذه الثمانية اوجه في هذا الكتاب ، وهو كتابه الذى يسمى "افوريسموا" ، تفسيره : كتاب الفصول ."(١)

(=) وحولوا البعض الآخر الى ملتهم . في رأى الجاحظ ان تفاعل الروم مع الفكر اليوناني امر تاريخي لا ينكر ، لكنه تفاعل اساء الى الفكر اليوناني الموروث وادخل عليه مقولات الزندقة والدهرية . راجع : كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ . واخطأ روزنتال في استبعاده ان يكون الروم قد تفاعلوا مع تراث اليونان ، اما قوله ان الجاحظ لا يقر بفضل للرومان ، فهو له ما يؤيده في كلام الجاحظ الذى تقدم .

(١) كتاب الفصول لابقراط شرحه موفق الدين عبداللطيف البغدادى (ت٦٢٩) والاصح كتابته "افوريسموى" وهي صيغة الجمع وتعني المأثور من الحكمة . وهي "aphorism" بالمفرد و "aphorismoi" بالجمع . والنص اعلاه من كتاب الحيوان ، ١ : ٩٨ - ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٢ . وتجدر الاشارة الى انه كان لارسطو او "صاحب المنطق" كما يدعوه الجاحظ ، الحظ الاوفر بين علماء اليونان ، من اشارات الجاحظ الى كتابه "في علوم الحيوان" الذى يقع في (=)

ومن مقولات الحكمة لدى اليونان ما ذكره الجاحظ عن مفهومهم للعلم والعمل .

قال :

" . . . ايهما احسن ؟ قول بقراط [(١)] مفسرا : العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد . . . ام قول افلاطون مجملا : لولا ان في قولي اني لا اعلم تثبيتا ، لاني اعلم ،لقلت اني لا اعلم ،ام تواضع ارشجانس [(٢)] حيث يقول : ليس معي من فضيلة العلوم الا علمي باني لست بعالم . . وقول ديمقراط عالم معاند خير من عالم منصف جاهل . . ثم انظر في قول ديسيموس [(٣)] لولا العمل لم يطلب علم . . ثم انظر في قول تومقراط [(٤)] العلم روح والعمل بدن . . وانظر في قول

(=) تسع عشرة مقالة ترجمها يحيى بن البطريق وذكرها ابن النديم في الفهرست. ويعكس ذلك الاثر البيّن الذى تركه الفكر اليوناني العلمي في نفوس المفكرين المسلمين . راجع كتاب الحيوان للجاحظ . وفي كتابات الجاحظ تأثر واضح بمفهوم الاخلاط والامزجة الاربعة التي نادى بها الطبيب اليوناني جالينوس بين ١٣٠و٢٠١ للميلاد وهي الدم والبلغم والمرّة السوداء والمرّة الصفراء . راجع كتاب البخلاء ص ١٥٤ وكتاب التربيع والتدوير تحقيق بلا ص ٨٣، و" رسالة في الجد والهزل" ، رسائل الجاحظ ج ١ : ٢٣١- ٢٧٨ ورسالة الجوابات في المعرفة ، المصدر نفسه ، ٤ : ٥٩ .كما يعكس كتاب التربيع والتدوير المذكور ، اهتماما باعلام الموسيقى والفكر لدى اليونان ،انظر الفقرة ١٥٠ ، ص ٨٢ من كتاب التربيع والتدوير .

(١) ورد في كتابات الجاحظ بصيغة ابقراط ايضا وهي المعروفة في المصادر العربية .

(٢) اما ان يكون احد تلامذة سقراط ،ايسخانيس Aischenes فتكون التهجئة العربية غير صحيحة لاسمه الحقيقي المقترح ، او ان يكون كما اقترح شارل بلا ، Arsiganus فتكون تهجئة الجاحظ صحيحة ،وهو المذكور في فهرست ابن النديم .

(٣) قال الجاحظ عنه في كتاب الحيوان -١ : ٢٨٩ ان ديسيموس " كان ممرورا وله نوادر عجيبة ،ما من نادرة الا وهي غرة وعين من عيون النوادر" . وقال شارل بلا عنه انه عالم يوناني صاحب مؤلفات مشهورة لدى العرب في علم تحويل المواد الى ذهب. ويعرف في الترجمات اللاتينية ب Rosinus .روسينوس ،الا انه ورد في كتابات الجاحظ بلفظ رسيموس وزسيموس وديسيموس . انظر كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ،ص ٤٦ من الفهرس .

(٤) لم اهتد الى ترجمته .

افليمون [١] : العلم كان من العمل والعمل غاية والعلم رائد . . وقـول ارسطاطاليس : ليس طلبي العلم طمعا في بلوغ قاصيته . . ولكن التمس مالا يسع جهله . . ثم انظر في قول مورسطوس [٢] عرفت اكثر المقصـود واقل ما يوقف عليه من المبسوط . وقليل الكثير كثير وكثير القليل كثير . . ثم انظر في قول ما سرجس [٣] : من قصر عن طلب العلم لرغبة او رهبة . . كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة ." [٤]

وان النزعة الجدلية في ادب الجاحظ غير بعيدة عن اعجابه" باللفظ المنطقي" [٥] اليوناني الذى ذكره في كتاب الحيوان ، وعلمه " بان المقدمات لابد ان تكون اضطرارية ، ولا بد ان تكون مرتّبة " ، [٦] وهي اساليب ترجع الى اليونان ، وقد استعملها الجاحظ في كثير من كتاباته . [٧]

---

(١) كاتب اغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان معاصرا لبقراط . قال المحقق عبد السلام هارون في تعليقه على قول الجاحظ ان " افليمون صاحب الفراسة" ان لا فليمون تصنيفا مشهورا في الفراسة خرج من اليونانية الى العربية ، طبع فـي حلب سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩ م يقع في خمس واربعين صفحة . انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ١٤٦ .

(٢) مؤلف يوناني له كتابات في الآلات الموسيقية ، لم تحفظ الا عند العرب . انظـر كتاب التربيع والتدوير ، ص ٣٠ من الفهرس .

(٣) ماسرجس طبيب يهودى من البصرة . ترجم عدة مؤلفات سريانية الى العربية ولـم يكن يونانيا . وقد ورد بلفظ ماسرجويه في كتاب الحيوان للجاحظ ، ٤ : ١٩٢ و ٣ : ٢٧٥ و ٣٢٣ .

(٤) الجاحظ ، كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ص ٩٨ - ١٠٠ والنص نفسه في "رسالة التربيع والتدوير " ، رسائل الجاحظ ، (تحقيق حسن السندوبي) ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٩٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ١ : ٧٨ .

(٧) راجع : فكتور شلحت اليسوعي ، النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤) ص ٩١ - ٩٨ و١٢٤ . حيث يظهر الاتجاه السوفسطائي والاتجاه الارسطي وانظر دراسة يوسف فان اس التي يظهر فيها ان آثار الجاحظ من اوائل المحاولات الكلامية التي تحاكي المنطق اليوناني :

Josef van Ess, "The logical structure of Islamic Theology," s.v. Logic in Classical Islamic Culture, edited by G.E. Von Grunebaum (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970), pp. 25, 26, 29, 32.

والجاحظ وان عدّ اليونان من الامم البائدة فقد ساواها بالامم المعتبرة حين اشاد بفضيلة الحنين الى الاوطان لديها لما تعكسه هذه الفضيلة من طيب عنصر ونفاسة جوهر. قال :

"... وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن . ولذلك قال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير ارضه ، فان الطبيعة تتطلع لهوائها ، وتنزع الى غذائها . وقال افلاطون : غذاء الطبيعة من انجع ادويتها . وقال جالينوس : يتروّح العليل بنسيم ارضه كما تنبت الحبة ببلّ القطر ...."(١)

(١) " رسالة في الحنين الى الاوطان" ، رسائل الجاحظ ،ج ٢ : ٣٨٧و٤٠٧ . وهذا الرأى لا يناقض قول الجاحظ في كتاب الحيوان الذى ينتقد فيه الجماعات التي لا تغادر مساكنها الوبئة ذات التربة والماء والهواء الفاسد . انظر كتاب الحيوان ٤ : ٧٠ - ٧٢ .

مثالـــب اليونـــان :

لا يجد الدارس مأخذا للجاحظ على اليونان الا كونهم يعبدون البروج والكواكب ودیانتهم بالدهرية . وقد ذكر الجاحظ ذلك في معرض كلامه عن اشتراك اليونـــان في " داء المنشأ والتقليد " الذى لم تسلم منه الامم المعتبرة المعاصرة للجاحظ او البائدة ، تحقيقا لمفهومه في تفاوت حال هذه الامم في الدنيا والدين [1] قال :

" . . . فقد علمنا جميعا ان عقول اليونانية فوق الديانة بالدهريـــة والاستبصار فيعبادة البروج والكواكب؛ وعقول الهند فوق الديانة بطاعـة البد ،وعبادة البددة . . . فداء المنشأ والتقليد ،داء لا يحسن علاجـــه جالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبراء وتقليد الاسلاف والف دين الآباء والانس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد والكلام فـــي هذا يطول . . . . " (٢)

ومن يدرس اقوال الجاحظ في الدهرية يلحظ انه لم يقصد دعاة هذا المذهب من المتكلمين المعاصرين له فحسب وانما قصد ايضا اصحاب هذا المذهب من مفكـــرى اليونان الذين كانوا يقولون بقدم العالم ويقدمون النفع واللذة على سائر الغايـــات ويجعلون للفلك ما ليس له . قال :

" . . . والدهرى الذى ينفي الربوبية ... وينكر جواز الرسالة ، ويجعـــل الطينة قديمة ،ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام . . . ويجعلالفلك الذى لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديـــث والقديم . . . ولا يستطيع الزيادة في حركته ،ولا النقصان من دورانـــه . . . ولا الوقوف طرفة عين ولا الانحراف عن الجهة ، هو[3] الذى يكون بـــه

---

(١) لان هذه الامم لا تُخضع دينها للمقاييس العقلية المتحررة من التقليد .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٨ . وقد اشار الجاحظ الى عبادة اليونان قوة الهيولى وعبادتهم النجوم ايضا في كتاب التربيع والتدوير ، تحقيـق شارل پلا ، الفقرة ١٣٤ ، ص ٧٦ .

(٣) " هو " اى الفلك الذى تقدم ذكره .

جميع الابرام والنقض ودقيق الامور وجليلها . . . لان الدهرى ليس يرى ان في الارض دينا او نحلة او شريعة او ملّة . . . انما الصواب عنده . . . انه والبهيمة سيّان . . . ليس القبيح عنده الا ما خالف هواه وليس الحسن عنده الا ما وافق هواه . وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والالم ، وانما الصواب فيما نال من المنفعة ، وانْ قتل الف انسان صالح لمنالة درهم ردئ . . . . "(١)

باختصار ، فان الدهرى عندالجاحظ هو الذى" لا يقر الا بما اوجده العيان ، وما يجرى مجرى العيان ، ويستنكر احياء الموتى "(٢)، ولا يقول بالتوحيد ولا يعرف الا الفلك وعمله ويرى ان ارسال الرسل يستحيل (٣) . وقد اورد الجاحظ مقولة استاذه النظّام في الرد على مقولة الدهرية في اركان العالم التي لم تجعل الروح ركنا في تكوين الاشياء (٤) ، كما اورد تعجّبه من قول اليونان بالهيولى وعبادتهم لها . (٥)

ويلاحظ الدارس ان الجاحظ قد ساوى بين الروم واليونان في مقولتهم بالدهرية ولا يستطيع المرء الجزم ما اذا كان الروم ، الذين افسدوا الفكر اليوناني الذى ورثوه ، هم مصدر القول بالدهرية ام ان اليونان كانوا سببه . (٦)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٢ - ١٣ . ومذهب اللذة او النفع هو ما دعا اليه الفيلسوف اليوناني ابيقور . انظر :

Encyclopaedia of Philosophy, (New York: Macmillan Publishing Co. 1967), s.v. "Epicurus," by P.H. Delacy.

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤ : ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٦٩ وقد انتقد الجاحظ مقولة الدهرية التي تطعن في ملك سليمان وملكة سبأ انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٨٥ . كما اخذ عليهم نظرتهم في تأويل المعجزات تأويلا طبيعيا ، كجعلهم الخسف كالزلازل . انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٧٠ - ٧٣ . وفي ذلك تأكيد لما اشرنا اليه من ان المقصود بالدهرية هنا ، معاصرون للجاحظ ايضا من المتأثرين بالفكر اليوناني .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٤٠ - ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ٥ : ٥٠ . وكتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ، فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٦) راجع " كتاب الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٣١٥ . ولكن ليس ما يمنع ان يكون بين الروم ، من قال بالدهرية التي تنفي الربوبية .

البـاب الثانـــــي

============

آراء الجاحـظ في الاســم غيــر المعتبـرة

========================

الفصل الاول : آراء الجاحظ في الصقالبة

تعد آراء الجاحظ في الصقالبة كما في اصناف السودان ، تطبيقا لمقولة استاذه النظّام في الاثر الحتمي للاقليم على الخَلق والخُلُق . ولكن الفرق في معالجة الجاحظ للسودان والصقالبة ان السودان حظيت بفضل لم يتوافر للصقالبة وهو وجود من يدافع عن مناقبهم وانجازاتهم من حيث هم امة مهضومة الحقوق . ويجب ان تفهم المناقب القليلة التي ينسبها الجاحظ الى الصقالبة في ضوء هذا السياق الذى لا يرقى بها الى مصاف الامم المعتبرة ولا الى مرتبة الامم التي تطالب بحقوقها كالسودان وان صدر عن الجاحظ ما قد يفيد الاحتمال الاخير كما سنرى ادناه .

مناقب الصقالبة :

ومع ان الجاحظ عدّ الخصاء مثلة وقسوة (1) ، فان آراءه في الصقالبة المخصيّين عرضها بصيغة الاقرار بواقع لا يمكن تجاهله ،وان كان لا يستسيغه . واولى هذه المناقب هي ان الصقالبة المخصيين" مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء ، لا يعرض لهم التخنيث . . . ورأيت ذلك في الزنج الاقحاح ."(2) فهذه ميزة سجلها الجاحظ للصقالبة على السودان . ومن مناقبهم ايضا ان شجاعة كل صقلبي في الرماية" تفي بمضرة قائد ضخم" (3) من قادة الروم الذين كانوا سبب خصائهم(4) . قال الجاحظ :

---

(1) راجع الجاحظ : كتاب الحيوان ، ١ : ١٢٤ حيث قال :" وحسبك بالخصاء مثلة وحسبك بصنيع الخاصي قسوة".

(2) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١٣٦ اى رأى الجاحظ ظاهرة التخنيث في الزنج .

(3) المصدر نفسه ،١ : ١٢٥ .

(4) قال الجاحظ : وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من الروم . المصدر نفسه ١، : ١٢٤ .

" . . . وهذا يدل على مقدار فرط الرغبة في النساء ، وعلى شهوة شديدة للمباضعة ، وعلى انهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا وهذه خصلة كريمة ، مع طلب الشوبة ، وحسن الاحدوثة ."(١)

ومن مناقب الصقالبة ايضا ان ذكاء الصقلبي المخصي يفوق ذكاء السوداني المخصي . بعبارة اخرى ، فان الخصاء يعطي الصقالبة كما ينقص السودان . قال الجاحظ :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان ، فان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحطّهم عن مقادير اخوانهم ، كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم . . . ."(٢)

والى جانب كون ذكاء الصقلبي المخصي يفوق ذكاء المخصي من السودان فان الجاحظ يلاحظ ان الصقلبي المخصي يفوق الصقلبي غير المخصي فيقول :

" ويعرض له ان اخوين صقلبيّين من ام واب ، لو كان احدهما توأم اخيه ، انه متى خصي احدهما خرج الخصي منهما اجود خدمة ، وافطن لابواب المعاطاة والمناولة ، وهو لها اتقن وبها أليق ، وتجده ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة ، فيُخَصُّ بذلك كله ، ويبقى اخوه على غثارة فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة الصقلّبية وعلى سوء فهم العجمية . . . فأول ما صنع الخصاء بالصقلبي ، تزكية عقله ، وارهاف حدّه ، وشحذ طبعه ، وتحريك نفسه فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته ، وقوته على قدر ما هيجه . فاما نساء الصقالبة وصبيانهم ، فليس الى تحويل طبائعهم ، ونقل خلقهم الى الفطنة الثاقبة ، والى الحركة الموزونة ، والى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة ، سبيل . . . ."(٣)

---

(١) المصدر نفسه ، ١ : ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٩ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦ - ١١٧ ولكن الجاحظ ما لبث ان حد من محاسن الصقالبة المخصيين حين نص على انه لا يوجد بينهم " من نفذ في صناعة تنسب الى بعض المشقة وتضاف الى شيء من الحكمة ، مما يعرف ببعد الروية والغوص بادامة الفكرة الا ما ذكروا من نغاذ ثقف في التحريك للاوتار وصنعة الدبوق ودعاء الحمام الطوريّ وما شئت من صغار الصناعات" المصدر نفسه ، ص ١١٧ - ١١٨ .

وكأن الجاحظ من خلال هذا النص ،وان اعطى حقّ الصقالبة من الفضل ، فهو في اقواله هذه لم يستطع ان يتجاوز ما سيذكره في مثالبهم وهواثر الاقليم على عقولهم كما سنرى في حينه . وحين حاول ان يتجاوز ذلك لم يفلح في تعليل بعض مناقبهم الا باقرار علة الخصاء المستحدثة فيهم(١) ، ولعل المحاولة الوحيدة التي انصفتهم كانت بلسان اصناف السودان في رسالة فخرهم على البيضان حين قالوا ان افراط البياض ،كافراط السواد ،ردّة فعل طبيعية ازاء عامل جغرافي قاهر لا تدل على نقص عقل ولا سوء فهم(٢).

---

(١) مع ما استدعته هذه العلة من اقوال غير مبررة في العجم ، الا ان يكون مبعثها تصور الجاحظ انهم مصدر علة الخصاء كما تقدم.

(٢) الجاحظ ،"كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٢٢٥ .

يستطيع الدارس ان يقول ان جميع مثالب الصقالبة حقائق جزئيـــة لمقولة النظّام في اثر حتمية الاقليم ذى الحرارة الضعيفة والطبيعة الفاسدة علـــى الخَلق والخُلُق ، فالصقالبة هي الامة التي لم تنضجها الارحام . قال الجاحظ :

" وكان يقول : ان الامة التي لم تنضجها الارحام ، ويخالفون في ألـــوان ابدانهم ، واحداق عيونهم ، وألوان شعورهم ، سبيل الاعتدال ـ لا تكـون عقولهم وقرائحهم الا على حسب ذلك . وعلى حسب ذلك تكون اخلاقهـم وآدابهم ، وشمائلهم ، وتصرف هممهم في لؤمهم وكرمهم ، لاختلاف السبك وطبقات الطبخ . وتفاوت ما بين الفطير [1] والخمير ، والمقصّر والمجاوز ـ وموضع العقل عضو من الاعضاء ، وجزء من تلك الاجزاء ـ كالتفاوت الـذى بين الصقالبة والزنج . وكذلك القول في الصور ومواضع الاعضاء . . . . "(٢)

كما قال الجاحظ مدعّما رأى النظّام بمثنى بن زهير الذى قسم الناس تقسـيط لونيا ونسب الى كل لون حظا من العقل :

" . . . فاذا ابيض الحمام كالقيع فمثله من الناس الصقلابي ، فـــأن الصقلابي فطير خام لم تنضجه الارحام ، إذ كانت الارحام في البلاد التي شمسها ضعيفة . . . وكما ان عقول سودان الناس وحمرانهم دون عقـــول السمر ، كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفـــــة والهدايـــــة . "(٣)

---

(١) الفطير ما يختبز من ساعته دون ان يختمر وينضج . والخمير ما ترك حتى نضـــج واختمر . والفطير هو الصقّلبي . قال الجاحظ في كتاب البرصان والعرجان : "يقول المتطببون وناس من المتفلسفين : الصقلبي من لم تنضجه الارحام فهو فطيـــر." انظر البرصان والعرجان ، ص ٤٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٥-٣٦ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .

وقد اعتمد الجاحظ مقولة للدهرية لتأكيد واقع الصقالبة المتخلف ،حين ذكر ان اجيال الصقالبة تمثل الولادة المتوقعة للتفاعل المستمر والمتشبث بطبيعة الماء والهواء والتربة الفاسدة . قال الجاحظ :

" وقال الصنف الاخر(١) : لا ننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . . . (٢)

وقد شبه الجاحظ الصقالبة ،حين تحدث عن الحمر(٣) بصورة القرود(٤) اما فيما يتعلق بالصقالبة والامم ، فقد قال الجاحظ ان الصقالبة يعترضهم من كي البلاء ما لا يعترى السودان (٥) وان الصقالبة ابخل من الروم واقل ذكاء منهم اى انهم يجمعون الغباء والبخل معا (٦) وكما اشرنا سابقا ، فان " غثارة فطرة الصقلبي وغباوة غريزته وبلاهته "(٧) هي سمات مصاحبة للافراد غير المخصيّين من الصقالبة حسب رأى الجاحظ.

---

(١) من اصناف الدهرية كما يفهم من سياق الكلام. المصدر نفسه ،٤ : ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ،٤ : ٩٨ ،وانظر ايضا : ص ٧٢ . والمقصود بالحمر الروس . انظر : المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ١٢٢ ولكن المحقق طه الحاجرى فهم ان المقصود بالحمر ، الصقالبة . راجع الجاحظ ، البخلاء ، ٢٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ،٤ : ٩٨ .

(٥) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، ص ٣٩ .

(٦) الجاحظ ، البخلاء ، ١٤٧ و" كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٩٦ .

(٧) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٧ .

الفصل الثاني : آراء الجاحظ في السودان

نعرض في هذا القسم آراء الجاحظ في مناقب السودان ومثالبهم ثم نعرض آراء السودان في انفسهم .

مناقب السودان :

عدّ الجاحظ من اصناف السودان الامم التالية : الزّنج[1] والحبشان والنوبة[2] والسند[3] والهند[4] في حين روى عن السودان انهم يضمون اليهم العرب والصين والقبط والبربر والزابج . ومع ان الجاحظ جعل الهند من السودان غير انه عد الهند من الامم المعتبرة . وقد عرضنا مناقبها ومثالبها في بحثنا حول الهند . ولذلك فسنقتصر على الكلام في اولئك السودان الذين لم يعدهم الجاحظ من الامم المعتبرة ونبدأ بالزنج .

من مناقب الزنج طيب افواهها[5] وطول خطبها[6] وسهولة لغتها وخفتها[7] وشدة بطشها[8] وقد اشاد باستعمالها العصي مثلما تفعل العرب في حروبها . وقد قال الجاحظ ان الزنج قبيلتان وهما آيتان في العدد والصبر قال :

---

(١) الجاحظ ،كتاب الحيوان، ٣ : ٢٤٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣و١١٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ .
(٤) الجاحظ ،" كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ،ج ٢ : ٣٥٥ .
(٥) الجاحظ ،كتاب الحيوان ، ٢ : ١٥٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ٧ : ٢٠٥ .
(٧) المصدر نفسه ، ٥ : ٢٨٩ .
(٨) المصدر نفسه ، ٢ : ٧٩ .

" . . . والزنج نوعان : احدهما يفخر بالعدد ، وهم يسمّون النمـــل ، والآخر يفخر بالصبر وعظم الابدان ، وهم يسمّون الكلاب . واحدهمــا " يكبو " والاخر" ينبو" . فالكلاب " تكبو" والنمل" تنبو" . (١)

ومن مناقبهم التي ذكرها الجاحظ السخاء حين قال" ان الله فضلهم بالجود " (٢). اما الحبشان والنوبة فقد ذكرهما الجاحظ معا ومن مناقبهما ما ذكره من فضل ملـــك الحبشة النجاشي على ايلاف قريش، (٣) فضلا عن تكريمهما الفيلة وتربيتها الخيـــل، (٤) وتداويهما بفرس الماء من وجع الطحال (٥) . اما امة السند فمن مناقبها استعدادهـــا الجيد لتقبل الفصاحة العربية (٦) واتقانها شؤون الصيرفة (٧) وحسن اصواتها (٨) ومهارتها في الطبخ وفي شؤون الصيدلة (٩) .

---

(١) قال المحقق عبدالسلام هارون انه وجد اضطرابا في رسم هاتين الكلمتين . فمرة بدئتا بالياء ومرة بدئتا بالتاء . واقترح ان تكون اللفظتان من الفاظ الزنج . قال : " فقول الجاحظ فالكلاب تكبو لعل معناه تسمى تكبو بالزنجية . " وفي لســـان العرب ما يشير الى الاقتراح المذكور بان يكون اللفظان اسمي علم وليســـا فعلين . ولكن ابن منظور اورد معنى ايجابيا لفعل كبا ونبا ، وهو الارتفـــاع والعظمة ، مما يطرح مجددا احتمال استعمالهما بصيغة الفعل . انظر الجاحـــظ ، كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ ، ولسان العرب لابن منظور ، مادة كبا .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٠٥ اما في البخلاء : ١٤٧ فقد ربـــط جودهم بقلة تدبيرهم للعواقب .

(٣) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٧ .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ و ٧ : ١٠١ .

(٥) المصدر نفسه ، ٧ : ١٣٨ و ٢٥١ .

(٦) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٥ .

(٩) المصدر نفسه .

مثالب السودان :

اما مثالب الزنج التي ذكرها الجاحظ فهي مأخوذة من علماء الدهرية (١) ومن مثنى بن زهير المعروف بصاحب الحمام (٢) ومن النظّام (٣) . فعلماء الدهرية يقولون ان الزنج تقاعست عن ترك البيئة الفاسدة التي تحيط بها حتى صارت صورها تناسب القرود . (٤) اما مثنى بن زهير فقد نسب الجاحظ اليه تشبيهه الزنج بالامة التي تعرضت الى عملية شديدة من الطبخ الحراري ومثلها في عالم الحيوان الحمام الاسود المحترق والغربان الحالكة السواد ، مما يعكس الاثر السلبي لحرارة الشمس الشديدة على الخَلق والخُلُق التي جعلت عقول السودان وحمرانهم دون عقول السمر .

وقد روى الجاحظ على لسان ابن زهير قوله ان الزنج شر الناس (٥). كما نقل عنه رأيه الذي يقرن السواد لدى الناس والحيوان بقلة المعرفة وسوء الهداية . (٦)

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤ : ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٧٩ وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا مما يختص بالحمام .

(٣) المصدر نفسه ٥ : ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤ : ٧٠و٧٢ وقد قال علماء الدهرية : " وقال الصنف الآخر : لا ننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا اعرابا حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني ."

(٥) قال : "وان اسود الحمام فانما ذلك احتراق ، ومجاوزة لحد النضج ومثل سود الحمام من الناس الزنج فان ارحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق وشيطت الشمس شعورهم فتقبضت . والشعر اذا ادنيته من النار تجعد فإن زدته تفلفل، فان زدته احترق . وكما ان عقول سودان الناس وحمرانهم دون عقول السمر كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية . والغراب يكون مع ذلك حالك السواد شديد الاحتراق ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس واردأ الخلق تركيبا ومزاجا ، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الارحام ، او سخنت فاحرقته الارحام." انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ و ٢ : ٣١٤ .

(٦) قال صاحب الحمام : وكل شيء من الحيوان اذا اسود شعره او جلده اوصوفه (=)

اما النظّام فقد وافق مثنى بن زهير فيما قال حول الاثر السلبي لحرارة الشمس على خلق السودان وخلقهم (١) .

وذكر الجاحظ مثالب اخرى للسودان . فمن مثالب الحبشة والنوبة في رأيه محاولة ملك الحبشة ابرهة في الجاهلية غزو الكعبة.(٢) ومن مثالبها ايضا عجزهما عن بلوغ المستويات الحضارية التي بلغتها سائر الامم المعتبرة وهو في ذلك ينتقد الشاعر "حكيم بن عياش الكلبي "(٣) عندما وضع الحبشة ضمن الامم المعتبرة في قوله :

ألم يك ملك ارض الله طرا لا ربعة له متميّز بينا
لحمير والنجاشي وابن كسرى وقيصر غير قول المسترينا(٤)

فيرد عليه الجاحظ بقوله :

"... فما ادرى باى سبب وضع الحبشة بهذا المكان .. واما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان ،ولو كان النجاشي في نفسه فوق

(=) كان اقوى لبدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة . وزعم ان الحمام الهُدَّاء انما هو في الخضر والنمر ،فاذا اسود الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجي الشديد البطش ، القليل المعرفة. والاسود لا يجيء من البعد لسوء هدايته والابيض وما ضرب فيه البياض لا يجيء من الغاية ،لضعف قواه ." انظر الجاحظ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ .

(١) وقد سبقت الاشارة الى قول النظام في حديثنا عن الصقالبة ص ١٠٩ .وانظر كتاب الحيوان ٥ : ٣٥ واما الفارق بين النظّام وصاحب الحمام فيكمن في توضيح عناصر التشبيه المعنية بعملية الطبخ؛ فامة الزنج هي كالخبز المحترق اى العجين الذى زاد في الاختمار وامة الصقالبة هي كالفطير الذى لم يخبز درجة كافية .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٩٩ و ٢١١ .

(٣) حُكَيْم بن عياش المعروف بالاعور الكلبي . شاعر انقطع الى بني امية بدمشق كان يتعصب لليمن على مضر .وروى الجاحظ عنه ان الزنج والنوبة اكرم من بني اسد وذلك في " كتاب فخر السودان ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٩ فيكون ذكر هذا الشاعر للحبشان ضمن الامم المعتبرة سببا شعوبيا وليس ايمانا بضرورة رد الاعتبار الى امة الحبش وبالتالي السودان كما هو الهدف العام من" كتاب فخر السودان".

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١ : ٣٨٤ .

تبّع وكسرى وقيصر لما كان اهل مملكته من الحبش في هذا الموضع.
وهو لم يفضل النجاشي لمكان اسلامه ، يدل على ذلك تفضيله لكسرى
وقيصر. وكان وضع كلامه على ذكر الممالك ثم ترك الممالك واخذ في ذكر
الملوك .... "(١)

ومن المثالب التي ذكرها الجاحظ في الحبشة والنوبة ان الخصاء يفعل بهم ما لا يفعله بغيرهم قال :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان فان الخصاء يأخذ
منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحطهم عن مقادير اخوانهم ،
كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم ...."(٢)

ومن مثالب السودان التي ذكرها الجاحظ ما يصيبهم من جزع وبخاصة النوبة منهم (٣) . واما مثالب السند فهي المثالب التي تصيب غيرهم من السودان حين يخصون. ويزيد الجاحظ عليها عدم معرفة اهل السند بتربية الخيل ان هم قورنوا بصبيان الحبشة والنوبة . كما اخذ الجاحظ على رجال السند عدم نجاحهم في تعهد البيوت بالمقارنة برجال الروم (٤) . وقد عد الجاحظ السند من الامم الذليلة لان ظهور الكبر فيهم ارسخ واعم من ظهوره في الاجناس المعتبرة كالروم والفرس . (٥)

---

(١) الجاحظ ، المصدر نفسه .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٣ .
(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ .
(٥) الجاحظ ، "رسالة في النبل والتنبل وذم الكبر" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٢ ، وكتاب الحيوان ، ٦ : ٧١ . وتجدر الاشارة الى سبب اغفالنا رأي الجاحظ في مثالب القبط في هذا البحث لان الجاحظ نفسه لم يعدهم من السودان ولم ينص انهم كذلك باستثناء ما سيرد من تأكيد انهم من السودان في كتاب فخر السودان على البيضان . ولكن استكمالا لعرض آراء الجاحظ في الامم نشير الى ان الجاحظ رأى ان القبط يتسمون بالغي ونقص الاحلام بالمقارنة مع رجحان عقول قريش والعرب. انظر البيان ٣ : ٢٩٥ و"رسالة في حجج النبوة" ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢٧٠-٢٧٢ .

آراء السودان في انفسهم

غير ان الجاحظ الى جانب ذكره مثالب السودان ومناقبهم ، يعرض علينا ما يقوله السودان في انفسهم وذلك في رسالة فخر السودان على البيضان . وهو يلخّص ما يقولونه في انفسهم بثلاث نقاط : اولا ان العرب والصين والهند من السودان فضلا عن القبط والبربر والزابج وغيرهم ولذلك فمن حقهم المفاخرة بالانجازات الحضارية المقررة لهذه الامم . قال :

" قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت الى الاحمر والاسود ." وقد علمت انه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر ، وليس لهم اسم الا السود . فاذا قال بعثت الى الاحمر والاسود ، ولسنا عنده حمر ولا بيض فقد بعث الينا ، فانما عنانا بقوله " الاسود " . ولا يخرج الناس من هذين الاسمين ، فان كانت العرب من الاحمر ، فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة ، وفارس وخراسان . وان كانت من السود ، فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا . . . ومنا العرب لا من البيضان لقرب ألوانهم من ألواننا ، والهند اسفر ألوانا من العرب ، وهم من السودان . . . قالوا : وانتم ترون كثرة العدد مجدا ، ونحن اكثر الناس عددا وولدا . . ونحن صنفان : النمل والكلاب (١) ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لاربت عليها . فكيف اذا قرنت اليها الكلاب ؟ ثم كيف اذا ضممتم اليها الحبشة والنوبة وفزّان (٢) ومرو وزغاوة (٣) وغير ذلك من انواع السودان ؟ . . . وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وانما رأيتم السبي يجيء من سواحل قنبلة (٤)

---

(١) انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ والبيان ، ٣ : ٥١

(٢) فزان احدى مقاطعات ليبيا الثلاث واهلها يتكلمون العربية ولغة البربر وهم على المذهب المالكي . كان عقبة بن نافع قد فتح هذه المقاطعة عام ٤٦هـ / ٦٦٦ م واصبحت مركزا لتجارة الرقيق . انظر :
Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Fazzan," by J. Despois.

(٣) زغاوة من امم السودان . انظر المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٩١ وانظر ايضا :
Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Sūdān," by Maurice Delafosse.

(٤) قال الجاحظ ان الزنج ضربان : قنبلة ولنجوية . انظر البيان والتبيين ، ٣ : ٥١ .

وغياضها واوديتها من مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لاهل قنبلة جمال ولاعقول . . . ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوما لهم عقول وعلم وأدب واخلاق حتى تطلبوا ذلك فيما سقط اليكم من الزنج ؟ وقد تعلمون ما في الهند من الحساب وعلم النجوم واسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما سبيتم منهم واحد على هذه الصفة ،او بعشر هذه الصفة؟ وقالوا : السودان اكثر من البيضان . . . والسودان يعدّون الزنج والحبشة وفزان وبربر [١] والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار[٢] والدبيلا [٣] والصين وما صين . . . وجزائر البحر ما بين الصين والزنج [٤] مملوءة سودانا كسرنديب وكله والمل وزابج . . . فتأملوا قولنا واحتجاجنا ،فانا قد روينا الاخبار وقلنا الاشعار ، وعرفناكم وعرفنا الامم". [٥]

---

(١) البربر او سكان المغرب قوم دخلوا في الاسلام بداية القرن الميلادى الثامن (الهجرى الثاني) وكانوا اصحاب ميول خارجية ابتداء من ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م من قبائلهم : زواغة التي ساعدت ادريس الاول في تأسيس مملكة فاس . راجع :
Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Berbers," by G. Yyer.

(٢) القمار بفتح القاف وكسرها موضع في الهند ينسب اليه العمود القمارى .

(٣) الدبيلا مذكورة في معجم البلدان لياقوت " دبيل" بفتح الدال وضم الباء وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .

(٤) لعل الاصح ان تكون الزابج ، وهي جزيرة في الصين تعرف بسومطرة . انظر :
Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Zābag," by Gabriel Ferrand.

وقد اشار الجاحظ الى هذه الجزيرة في كتاب التربيع والتدوير (تحقيق پلا) فقرة ٦٤ ص ٣٧ . كما نقل المستشرق المذكور قول ابن خرداذبة عنها وهو ان ملكا كان يدعي اسحق بن عمران (ت ٩٠٧ م) كان يحكمها ويحكم" كله" وان جزيرة زابج كانت مشهورة بالكافور .

(٥) الجاحظ ،" كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١٠ - ٢١٣ ، ٢١٥- ٢١٧ .

اى ان على الامم ان لاتستدل على مستوى السودان من خلال السبي الذى يصلها منهم ، وانما من خلال الانجازات الحضارية المسلّم بها للصين والهند والعرب والزابج والقبط. وما دامت العرب من السودان فمن مناقبهم ايضا نصرة الاسلام(1). وبما ان الهند منهم فان من مناقبهم معرفة الفلسفة والنظر والثقافة والصبر وعلم الفكر (٢)، وهي خصائص امة الهند . وما دامت الزابج منهم ، فمن حقهم الافتخار بكثرتهم وقوتهم (٣). وبما ان القبط (٤) منهم، فان من حقهم الاعتداد بكون النبي قد رغب في مصاهرتهم(٥)، فضلا عن كون ايلاف قريش معتمدا على العلاقات الطيبة مع المقوقس (٦) عظيم القبط وصاحب الاسكندرية . وبما ان السند من السودان فمن حقهم الاعتداد بفضائل السند كالفصاحة (٧)، واتقانهم شؤون الصيرفة (٨)، والمعرفة بالعقاقير

---

(١) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٢-٢٠٢و .

(٢) المصدر نفسه ، ٢١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢١٨ حيث يذكر ان اهل الزابج اكثر من شطر اهل الارض.

(٤) القبط هو اللفظ العربي لنصارى مصر وكان اليونان يقصدون بهم سكان مصر والنيل؛ وحسب مصادر سامية فان اللفظ يرجع الى حفيد للنبي نوح استقر في وادى النيل. واما دار القبط فيقصد العرب بها الذرية النصرانية لقدماء المصريين وقد اوصى النبي محمد بهم خيرا . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Kibṭ," by A.S. ʿAṭiya.

(٥) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ .

(٦) المقوقس او عظيم القبط وصاحب الاسكندرية كما يدعوه الجاحظ هو حاكم مصر الذى عينه هرقل عام ٦٣١ م . راجع مقالة القبط المذكورة آنفا في دائرة المعارف الاسلامية بالانكليزية .

(٧) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٩٨ .

(٨) المصدر نفسه ، ٢٢٤-٢٢٥ .

ومهارتهم في الطهي (١) مع جودة اصواتهم (٢).

ثانيا : ليس ما يمنع ان تجمع امة السودان فضيلتي السخاء والذكاء ، ولا يجوز ربط سخائهم بقلة تصورهم للعواقب (٣) . ثالثا : ان اللون الاسود ليس عيبا في السودان وانما هو نتيجة للبيئة ، ففي العرب وغيرهم يظهر اللون الاسود دون ان يحط هذا اللون من قدرهم . وفي ذلك يقولون :

" . . . ونحن نقول ان الله تعالى لم يجعلنا سودا تشويها بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سودا كبني سليم بن منصور . وكل من نزل الحرّة من غير بني سليم كلهم سود . وانهم ليتخذون المماليك للرعي والسقاء . . . ومن الروم نساءهم ، فما يتوالدون ثلاثة ابطن (٤) حتى تنقلهم الحرّة الى الوان بني سليم . ولقد بلغ من امر تلك الحرّة ان ظباءها ونعامها وهوامها . . . كلها سود . والسواد والبياض هما من قبيل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة ، من قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير . " (٥)

وقد انتهى السودان الى التقرير ان التفاوت اللوني كافراط البياض وافراط السواد والسمرة المتولدة بينهما هو كالتفاوت الملاحظ في طبيعة المخلوقات كافة ، في هيئاتها ونوازعها وصناعاتها وان ذلك كله ليس تشويها ولا عقابا . قالوا :

" فليس سوادنا ، معشر الزنج ، الا كسواد بني سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام . وما افراط سواد من اسود من الناس ، الا كافراط بياض من ابيض من الناس . وكذلك السمرة المتولدة

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه : ١٩٦ .
(٤) ذكر الجاحظ هذه الفكرة في كتاب التربيع والتدوير ايضا . تحقيق بلا ، الفقرة ٤٨ صفحة ٣٠ - ٣١
(٥) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٩ - ٢٢٠ .

من بينهما ، وكذلك الزى والهيئات ، وكذلك الصناعات ،والمطاعم والشهوات." (١)

وان ما ذكره السودان من اعتداد بكثرتهم وشدة ابدانهم وجمعهم المعرفة الى القوة ، يهدف الى تصحيح الصورةالشائعة التي طرحها مثنى بن زهير من كون السواد يمثل القوة الجسدية دون قوة المعرفة (٢) .

(١) الجاحظ ،"كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ٢٢٠ وقد ردّ الجاحظ اثر البلدان وتصرف الازمان في"كتاب الاوطان والبلدان" ،رسائل الجاحظ ج ٤ : ١٠٩ .

(٢) الجاحظ ،"كتاب فخر السودان" رسائل الجاحظ ،ج ١ : ٢٠٣ و٢١٧ . وراجع مقولة صاحب الحمام في كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ و ٣١٤ و ٣ : ٢٤٥ .

البـــاب الثالـــــــــث

===============

الخاتمة : بيان مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائـــه .

==================================

الفصل الختامـــــي

لقد استطاع الجاحظ من خلال حياته الطويلة (١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥هـ/ ٨٦٩ م) ان يحفظ لنا في كتاباته المتنوعة نظرة العرب الى انفسها من حيث هي امة اتتها محاسن الامم بعد ان اجتمع فيها" فضلا النبوة والملك "(١) دون ان ينكر مـــا لسائر الامم المعتبرة من فضل ومناقب ، سواء التي ساندت الخلافة العباسية والتي لم تساندها .

لم يعتمد الجاحظ مقياسا واحدا في نظرته الى الامم المعتبرة فهو تارة يعتمـد مقياسا حضاريا بمعزل عن الدين وطورا يعتمد مقياسا دينيا صرفا واحيانا يزاوج بينهما . ونجد المقياسين متوافرين في كل من امم العرب والروم(٢) والترك وبعض اصناف السودان كالقبـط(٣). كما نجد المقياس الحضاري ضعيفا عند الصقالبة حين خصهم بسمتي الرماية وخدمــة البيوت فقط . واحيانا يتوافر المقياس الحضاري بقوة ، دون المقياس الديني كما عنـد الهند والفرس واليونان واحيانا يضمحل المقياس الديني لدى الامم المعتبرة جمعـــا" حين يرى الجاحظ استوا" في تهافتها في مسألة الدين لانها تشترك جميعا فـــي عدم اعمال الفكر وفي اتباع التقليد في الدين.(٤) ونجد ايضا المقياس الحضاري يقـــوى في فكر الجاحظ ، مع تجاوز واضح لمقياس الدين وذلك حين جعل الجاحظ امم الفـــرس والهند والروم تشارك العرب في المنزلة الحضارية وذلك بفضل ما اسهم كل منها فـــي الحضارة الانسانية ، حتى ولو لم تمت اي منها الى الاسلام بشي' . ويدخل في المقيـــاس الحضاري طائفة كبيرة من المناقب والخصائص الايجابية كما مرّ معنا من اجتماع خصائص خلقية كاجتماع العقول والاخلاق والآداب والاحلام وخصائص عملية كانتظام معانـــي الفروسية والحرب واتقان الصناعات وغير ذلك مما سبق . ولقد اقر الجاحظ بالمناقـــب

---

(١) اللفظ للجاحظ ، انظر " رسالة في النابتة" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .
(٢و٣) لان الروم والقبط اهل كتاب وملة في مفهوم الجاحظ .
(٤) راجع " كتاب الاخبار وكيف تصح " للجاحظ" ، المجلة الآسيوية ، ص ٩١ - ١٠٢ .

الحضارية للامم التي لولا ها" لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة" (١) ولذلك عدّ المستشرق فرانز روزنتال ، الجاحظ ،رائدا في طرح فكرة الحكمة الخالدة للامم التي تناقلتها الى ان وصلت العرب الذين كانوا في نظر الجاحظ آخر من ورثها (٢) . وارى ان قيمة آراء الجاحظ التي عرضتها في مسألة الامم تكمن في هذا الطرح المبكر لموضوع مناقب الامم ومثالبها (٣) في دائرة النثر العربي مما يدل على ممارسة الجاحظ في سائر كتاباته ، البعد الوظيفي الاعلامي للادب وسيلةً بناء وتوجيه، وقد دفع ذلك الطرح بعض الدارسين الى القول ان مجتمع القرن الهجري الثالث ، التاسع الميلادي ،كان النواة التأسيسية للقرون اللاحقة حيث بلغت مواضيع كثيرة طرقها الجاحظ مرحلة النضج (٤) . فالجاحظ مثلا كان من اوائل الذين طرحوا فكرة التخصص الحضاري وغلبة طابع معين على امة من الامم ،كغلبة طابع البيان على العرب وطابع السياسة على الفرس وطابع الحكمة على اليونان والصناعات على الصين ، مع استواء الجميع في التحلّي بقدر مشترك من الفضائل وذلك لاشتراكهم في معنى الانسانية الذى يقع حمدا كما يقع ذما . ولنا ملاحظة في المعاني الحميدة التي رآها الجاحظ في الامم . فاقواله التي اطلقها في مناقبهم مع استدراكه بانها الاغلب عليها ، وانها فيهم اعم واتم واظهر واكثر (٥) ، تحتمل فيما تحتمل وخاصة تلك التي تتحدث في

---

(١) انظر الجاحظ ،كتاب الحيوان ، ١ : ٧٥و٨٥ - ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship, p.71.

(٣) فضلا عن تلقيح الجاحظ النثر العربي بمواضيع جديدة اخرى كالنقد الادبي والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الحيوان .

(٤) انظر :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Jāhiz, University of California Press, 1969), p. 22

وانظر ايضا: محمد عبد المنعم خفاجي ،ابوعثمان الجاحظ ،(بيروت : دار الكتاب اللبناني ،١٩٨٢) ص ١٨٨ - ١٨٩ و٢٤٣ .

(٥) انظر الجاحظ ،رسالة" في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

خصائص الامم المستقدمة الى دار الاسلام من الجند والموالي والعبيد ،الا تكون ممثّلة للواقع الاجتماعي لاخوانهم غير المستقدمين للعمل في خدمة الخلافة العباسية . اى انه يجوز ان تكون جماعات الترك المستقدمة الى سامراء تمثل نسبة ضئيلة من المجتمع التركي ، كما يجوز ان يكون افراد الصقالبة والزنج الموجودين في المجتمع العباسي لا يعكسون الوجه الايجابي الحقيقي لاخوانهم في بلادهم . ومن الطبيعي ان ذلك كله كان يحتاج من الجاحظ الى اجراء دراسة دقيقة للوصول الى آراء جامعة مانعة . اما فيما يتعلق بمثالب الامم فأرى ان ابلغ ما قاله الجاحظ في هذا الخصوص كون الامة تعرف بكثرة الحسنات وقلة المساوىء ، فاما ان تبرأ الامة المعتبرة من المثالب، دقيقها وجليلها ،فهذا ما لا يعرف في نظر الجاحظ (١) . ويلاحظ القارىء ايضا ان الجاحظ كان ينظر الى المثالب من الزاويتين المشار اليهما آنفا ،اى الزاوية الحضارية والزاوية الدينية ، حتى نرى الخصلة عنده سيئة بمقدار بعدها عن الاسلام ، كخصلة الزندقة لدى بعض طوائف الترك ، وخصلة عبادة النجوم والكواكب والقول بالدهرية كما لدى اليونان والروم وخصلة عبادة الاصنام كما لدى العرب والهند وخصلة عبادة النار لدى الفرس ، فضلا عن محاولة ملك الحبشة غزو مكة ، التي عدّها مثلبة صبغت الامة جميعها .

واما اقوال الجاحظ في الارتباط العضوى للناس بمحيطهم الجغرافي من هواء وماء وتربة ،فتعدّ ايضا من المحاولات الاولى من نوعها التي ترى الانسان ابن بيئته. وقد قدّر لهذه الاقوال ان يردّدها كثير من الجغرافيين من بعده (٢) . والذى يعنينا هنا ان الجاحظ لاحظ استواء الامم في خضوعها الى العوامل الجغرافية المذكورة

---

(١) الجاحظ " رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣٧ ،وانظر ص ١١ من هذه الرسالة وقارن مع التوحيدى في الامتاع ١ : ٧٣ .

(٢) انظر :

Tarif Khālidy, "Some classical Islamic views of the city," Studia Arabica& Islamica, Festschrift for Ihsān ʿAbbas on his sixtieth Birthday. Edited by Wadād Al-Qādi.(Beirut: American University of Beirut, 1981) p. 273.

فللوطن اثر يعمل في طبائع كل امة (١)، سلبا وايجابا، بحيث تصلح الناس بصلاح العوامل الجغرافية وتفسد بفسادها. قال الجاحظ :

"... وعلى قدر اختلاف طبائع الاماكن شاهدنا اللغات والاخلاق والشهوات ولذلك قالوا : فلان "ابن بجدتها" وفلان "بيضة البلد"، يقع ذمّا ويقع حمدا."(٢)

وقد ظهر اثر صلاح الهواء والتربة والماء بأجلى صوره في مكة والمدينة والبصرة ومصر والشامات (٣)، مما دفع الجاحظ الى طرح مقولته في تفاضل البلدان وبالتالي تفاضل الطبقات الاجتماعية المستقرة في هذه البلدان، كفضل بني هاشم على قريش وفضل قريش على سائر قبائل العرب التي تفضل بدورها سائر الامم، فضلا لا يعتمد على النبوة وخصائصها الاخلاقية فحسب وانما على محيطها البيئي الصالح ايضا (٤). كما ظهر اثر فساد الهواء والتربة والماء في الكوفة (٥) وانطاكية وقصبة الاهواز (٦)، والاخيرة كادت

(١) اللفظ للجاحظ، راجع "كتاب في الاوطان والبلدان"، رسائل الجاحظ، ج ٤ : ١١٣ .
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ٣ : ٢٩٤ .
(٣) الجاحظ "كتاب في الاوطان والبلدان"، رسائل الجاحظ، ج ٤ : ١١٣، ١٣٨، ١٤١.
وقد ظهر الاثر الايجابي للبصرة ومصر في طول اعمار سكانهما وحسن عقولهما وحذقهما جميع الصناعات فضلا عن كثرة دورهما في حين ان عامة الكوفة "خراب يباب" انظر المصدر نفسه، ٤ : ١٤٢ .
(٤) المصدر نفسه، ٤ : ١٢١ و١٢٨ و١٣٦ و١٤١ .
(٥) قال الجاحظ ان طبيعة الكوفة فاسدة التربة وخبيثة المغرس والثمر كما قال: "وخبرني من بات انه لم ير كواكبها زاهرة قط وانه لم يرها الا ودونها هبوة وكأن في مائهم مزاج دهن". انظر الجاحظ "كتاب الاوطان والبلدان"، رسائل الجاحظ، ٤ : ١٤٢ -
(٦) انعكس فساد طبيعة الاهواز على حيوانها وانسها حتى ان البخل عمهما معا . انظر البخلاء، ١٣٠ .

تفسد مزايا بني هاشم لان تربة الاهواز فاسدة بخلاف تربة مدينة النبي (١) . غير انه لا يفهم من ذلك ان الجاحظ اعطى العوامل الجغرافية هذه دورا مطلقا يُعلِّل به جميع مظاهر السلوك الاجتماعي السلبي للامم ،او يعزو اليه محاسن الاجناس ، لان ذلك يتعارض مع مفهومه لعملية التكليف الالهي لافراد الامم جميعا ولذلك حرص الجاحظ كما رأينا في كلامه عن مثالب الامم المعتبرة ،الى ابراز عامل آخر غير مادى مسؤول عن وقوعها في الخطأ؛ ألا وهو فساد الارادة البشرية حين تركن الى "الهوى والتقليد وترضى بالسابق الى القلوب وتذهب مع العصبية والاستسلام للمنشأ" (٢) . وقد عمّ الفساد المذكور الامم غير المعتبرة كالصقالبة والزنج حين التزمتا المساكن الوبئة ولم ترتحلا عنها الى البيئات الصالحة ، فكان تقاعسهما تأكيدا لرأى الجاحظ فيما يرافق لزوم مثل هذه الاماكن من الفشل والنقص . (٣)

وأخيرا لا آخرا ، تجدر الاشارة الى ان الجاحظ مع اعتقاده بتفاضل الامم والبلدان ، فهو لم ينظر نظرة عرقية الى سائر الاجناس من غير امة العرب. وفيما يتعلق بنظرته الى الاثنيات اوالاعراق المختلفة المتواجدة في دار الاسلام فهي نظرة تعكس المفهوم الاسلامي للامة الذى يلحظ انصهار عدة اثنيات متماسكة فاعلة في بوتقة واحدة هي موسسة الخلافة. وقد ظهر هذا الموقف جليا فيما عرضنا من اقواله في الامم وخاصة في رسالته في مناقب الترك وعامة جند الخلافة التي كتبها بهدف تأليف قلوب جند الخلافة (٤). وما يوكد هذا الهدف وتلك الرؤيا التي تعكس السياسة الامية غير

---

(١) الجاحظ" كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ،ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) الجاحظ ،" كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية ،ص ١٠١ - ١٠٢ .قال الجاحظ : والنسق على التقليد هو الذى ملأ خواطرهم واماتت قلوبهم ولو كان ذلك من قبل الطالع والتربة لما حسن الامر والنهي ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب ولما كان لارسال الرسل معنى".

(٣) الجاحظ ،" كتاب في الاوطان والبلدان" ،رسائل الجاحظ ،ج ٤ : ١٠٩ .

(٤) الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ،ج ١ : ٢٩، ٣٦و٨٦ .

القبلية او العرقية للدولة العباسية انتقاد الجاحظ التالي للشاعر المتلمس . قال :

" ولقد اسرف المتلمس حيث يقول :

احارث انّا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى لا يمسّ دم دما

واشد سرفا منه قول ابي بكر الشيباني . قال : كنت اسير مع بني عم لي من بني شيبان وفينا من موالينا جماعة في ايدى التغالبة ، فضربوا اعناق بني عمي واعناق الموالي على وهدة من الارض ، فكنت والذى لا اله الا هو ، ارى دم العربي ينماز من دم المولى ، حتى ارى بياض الارض بينهما ، فاذا كان هجينا قام فوقه ولم يعتزل عنه ." (١)

وبعد ، فانا لا نجد الجاحظ في كتاباته ، يعنى بتعريف الامة ، وانما نراه مكتفيا بذكر العوامل الفاعلة في نشوئها والمؤثرة فيها (٢) ، دون الاهتمام بطرح تحديد مباشر لها . وقد رد الجاحظ هذه العوامل المؤسّسة لظهور امة والمقررة لهويتها ، الى ما قسمه الله من خصائص خَلقيّة وخُلُقيّة لامة ما (٣) وخصائص

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٦١ .

(٢) كقوله في واقع امة العرب قبل الاسلام ، الذى يرجعه الى تراكم التفاعل الايجابي المميّز بين جملة عوامل جغرافية وخلقية ، حتى صارت هذه العوامل " ولادة اخرى تناكحوا عليها وتصاهروا من اجلها " اى قامت عندهم مقام حرمة الولادة وفضل الارحام الماسّة ، تمهيدا للامر المزمع والحادث المتوقع . راجع : الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك ،" رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١١ .

(٣) اى " ما قسم الله تعالى لاهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الاخلاق واللغة" وهي خصائص لا ارادية . انظر الجاحظ ،" رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ،" رسائل الجاحظ، ج ١ (١٩٦٤) : ١٠-١١ .

البيئة الجغرافية (١) المحيطة بتلك الامة ، فضلا عن ردة الفعل الاختيارية للارادة الانسانية (٢) ازاء هذه المعطيات ، الارادة التي يراها العنصر الاهم (٣) في تمييز امة عن سواها .

(١) اى " ما طبع الله عليه البَلدة وما قسم لتلك التربة . . . كما تجد لأهل كل ماء وهواء وطينة نوعا من الاخلاق والمنظر والزى والصناعة واللغة ." انظر الجاحظ ، المصدر نفسه ، ص ٦٣ وانظر "كتاب الاخبار وكيف تصح ،" تحقيق شارل بلا ، المجلة الآسيوية ، ج ٢٥٥ ، ١٩٦٧ ، ص ١٠١ .

(٢) وهذه الارادة غير مسخّرة للمعصية او للمفسدة لان الله تأبّى على نفسه التيسير للمعاصي . انظر : الجاحظ ،"رسالة في حجج النبوّة ،" رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢٤٦ وكتاب الحيوان ، ١ : ١٤١ .

(٣) رأينا ان الجاحظ في حكمه على مناقب الامم ومثالبها كان ينطلق من ملاحظته دور الارادة البشرية وردة فعلها الايجابية او السلبية ازاء المعطيات البيئية والمعنوية المتاحة امامها ، حتى نجده يعزو القسط الاوفر من مثالب الامم كافة الى فساد الارادة وسوء الاختيار اكثر منه الى المحيط الجغرافي . انظر : الجاحظ ، كتاب الاخبار وكيف تصح ،" ص ١٠١ وانظر ايضا : "كتاب الاوطان والبلدان "، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦و ١٤٢ .

مصادر الرسالة ومراجعها

اولا : المصادر العربية

(أ) مؤلفات الجاحظ :

١ - البخلاء . تحقيق طه الحاجري . القاهرة : دار الكتاب المصرى ، ١٩٤٨ .

٢ - البرصان والعرجان والعميان والحولان . تحقيق محمد مرسي الخولي . القاهرة وبيروت : دار الاعتصام ، ١٩٧٢ .

٣ - البيان والتبيين . تحقيق عبدالسلام هارون ، ٤ اجزاء . بيروت : دار الفكر ، د . ت .

٤ - الحيوان . تحقيق عبدالسلام هارون ، ٧ اجزاء . بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٦٩ .

٥ - رسائل الجاحظ . تحقيق حسن السندوبي . القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٣ .

٦ - ________ . تحقيق عبد السلام هارون ، ٤ اجزاء . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٤ و١٩٧٩ .

٧ - " رسالة عمرو بن بحر الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب في فعله " ، تحقيق شارل بلا ، مجلة المشرق ج ٤ و ٥ (السنة ٥٢ ، ١٩٥٨) ، ص ٤١٧ - ٤٨٧ .

٨ - العثمانية . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٥٥ .

٩ - " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، تحقيق شارل بلا . المجلة الآسيوية Journal Asiatique الجزء ٢٥٥ (١٩٦٧) ، ص ٩١ - ١٠٥ .

١٠ - كتاب التربيع والتدوير . تحقيق شارل بلا . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٥ .

١١ - مجموع رسائل الجاحظ . تحقيق محمد طه الحاجرى . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣ .

١٢ - المحاسن والاضداد . تحقيق فوزى عطوى . بيروت : دار صعب ، ١٩٦٩ .

١٣ - "من دقائق رسائل الجاحظ : (١) رسالة في اثبات امامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، (٢) رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العرب ، الجزء ٦ و٧ (السنة٩ ، ١٩٣١) صفحة ٤٩٧ - ٥٠١ و٤١٣- ٤٢٠ .

(ب) المصادر العربية عدا مؤلفات الجاحظ:

١ - ابن الاثير ، ابو السعادات مبارك بن محمد . النهاية في غريب الحديث . ج ١ ، مصر : المطبعة العثمانية ، ١٣١١ هـ.

٢ - ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد . جمهرة انساب العرب. تحقيق ليفي بروفنسال . مصر: دار المعارف ، ١٩٤٨ .

٣ - ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد . العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر. ج ١(المقدمة) . القاهرة : بولاق ، ١٢٨٤ هـ .

٤ - ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد . وفيات الاعيان . ج ٦ ، تحقيق احسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢.

٥ - البيروني ، ابو الريحان محمد بن احمد . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة . حيدر آباد الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ .

٦ - الخوارزمي ، ابو عبدالله محمد بن احمد . مفاتيح العلوم. تحقيق ج . فان فلوتن . ليدن : بريل ، ١٩٦٨ .

٧ - المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين . التنبيه والاشراف. بيروت : مكتبة خياط ، ١٩٦٥ . وليدن : مطبعة بريل ، تحقيق م.ج . دوغويه ، ١٩٦٧ .

٨ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ابو عبدالله . معجم البلدان . ج ١ . بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥ .

٩ - الجواليقي . المعرّب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .

ثانيا :المراجـــــع .

(أ) المراجع العربيـــــة :

١ - بلا ،شارل . الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء . ترجمة ابرهيم الكيلاني . دمشق : دار اليقظة العربية ، ١٩٦١ .

٢ - الحاجرى ، طه . الجاحظ حياته وآثاره . القاهرة ،دار المعارف ، ١٩٦٩ .

٣ - خفاجي ، محمد عبد المنعم. ابوعثمان الجاحظ . بيـــــروت: دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .

٤ - شلحت اليسوعي ،فكتور. النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ.القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤ .

٥ - عمر ،فاروق . طبيعة الدعوة العباسية. بيروت : دار الارشـــاد للطباعة والنشر، ١٩٧٠ .

٦ - كتابجي ، زكريا . الترك في مؤلفات الجاحظ. بيروت : دار الثقافة، ١٩٧٢ .

٧ - ونسنك ،أ. ى . ،ومنسنغ ،ى .ب . المعجم المفهرس لالفـــاظ الحديث النبوى. ليدن : بريل ، ١٩٦٧ .

(ب) المراجع باللغة الانكليزية :

1- ʿAṭiya, A.S. S.v. "Kibṭ" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.

2- Barthold, W. S.v. "Ṭoghuzghuz." In The Encyclopaedia of Islam. 1st e

3- Beeston, A.F. S.v. "Abraha" Ibid. New ed.

4- Delafosse, Maurice, S.V. "Sūdān" Ibid. 1st ed.

5- Ferrand, G. S.v. "Al-Amīn" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.

6- ______, S.v. "Zābag" Ibid. 1st ed.

7- Khalidi, Ṭ. Islamic Historiography. N.Y.: State University of New York Press, 1975.

8- ______, "A Mosquito's Wing: Al-Jāḥiẓ on the Progress of Knowledge." In Arabic and Islamic Garland. Edited by colleagues, friends and students of Abdul-Laṭif Ṭibāwi, London, 1977.

9- ______, "Some Classical Islamic Views of the City." In Studia Arabica et Islamica. Festschrift For Iḥsān 'Abbas on his Sixtieth Birthday. Edited by Wadād al-Qāḍi, Beirut: American University of Beirut, 1981, pp. 265-276.

10- Le Strange, Guy, The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge University Press, 1930.

11- Lockhart, L. S.V. "Al-Ahwāz" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.

12- Muir, W. The Caliphate, its rise, decline and fall. Edinburgh, 1915.

13- Pellat, C. The Life and Works of Al-Jāḥiẓ. Berkeley: University of California Press, 1969.

14- ______, S.v. "Al-Djāḥiẓ." In The Encyclopaedia of Islam. New ed.

15- ______, S.v. "Ḥilf al-Fuḍūl." Ibid.

16- Rocher, L. S.v. "Sutra and Sastra Literature." In The Encyclopaedia of Religion. v. 13, 14. New York: Macmillan Publishing Co., 1987.

17- Rosenthal, F. Technique and Approach of Muslim Scholarship. Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947.

18- Van Ess, J. "The Logical Structure of Islamic Theology." In Logic in Classical Islamic Culture. Edited by G.E. Von Grunebaum. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970.

19- Zettersteen, K.V. S.v. "Al-Abnā'." In The Encyclopaedia of Islam. New ed.